

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190172

UNIVERSAL
LIBRARY

كِتَابُ

أَسْتَبْرَافِ الْأَسْبَابِ

فِي

الْحَرْوِ وَالسِّيَرِ

تَأليف

رفيق بك العظيم

الجزء الثالث من المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب)

« رضي الله عنه »

« الطبعة الثالثة »

مُطَاعَمَاتُ هَيْدَرَاةِ مَبْصُرٍ

١٣٤٠ - ١٩٢١

كِتَابُ

السِّيَرِ الْأَمْثَلِ

فِي

الْحِزْبِ وَالسَّبِيحَةِ

(تأليف)

رفيق بك العظم

— الجزء الثالث من المجلد الأول —

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب)

« رضي الله عنه »

« طبعة ثالثة »

مطبعة مسندية بالموسكى بمصر

١٩٢١ - ١٣٤٠

أبو عبيدة بن الجراح ❦

(باب)

❦ حالة في الجاهلية ❦

(نسبه وأصله)

اسم أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن
ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة
بكنيته ونسبه الى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الامة
وأحد العشرة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض :
وروى ابن عساكر ان أمه أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزي بن عامر
ابن عميرة وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر
وأدركت أمه الاسلام وأسلمت : وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن محمد
ابن سعد : قال في الطبقة الاولى من بني فهر بن مالك بن النضر بن
كنانة - وهم آخر بطون قريش - أبو عبيدة بن الجراح

(سيرته في قومه ومكانته عندهم)

كان أبو عبيدة محترما في قومه مستشارا فيهم معروفا بالرأى والدهاء
وكان يقال كما روى ابن عساكر في تاريخه « داهيتا قريش أبو بكر وأبو
عبيدة بن الجراح » ولم تقف على زيادة تفصيل من سيرته في الجاهلية
فنحن نكتفي عن ذلك بسيرته في الإسلام فإن فيها ما يعني وهي المطلوب
في، كتماننا هذا

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

أبو عبيدة قديم الاسلام ومن السابقين الذين كشف عن بصائرهم حجاب الغفلة وانزعوا من أعماق النفوس آثار الجهل والجاهلية مذ دعاهم داعي الحق الى التوحيد . واستبان لهم طريق الخلاص من ربة التقليد . فقد أخرج الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن يزيد بن رومان قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطالب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم وقبل أن يدعو فيها . وكان اسلامهم كما في بعض الروايات بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين

صحبه

أسلم أبو عبيدة مخلصاً لله في اسلامه فكان قوياً في دينه صادقاً في صحبته متفانياً في حب نبيه حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الامة أخرج الحافظ الجزري في أسد الغابة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين وإنّ أميننا أيتها الامة أبو عبيدة بن الجراح » : وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند الرسول (ص) إلا من عرف حقيقة دينه واستمسك بعروته وأخلص لله في سره وعلايته ولقد كان يعبده على هذه المنزلة كثير من كبار الصحابة رضى الله عنه وعنهم أجمعين أخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران الى النبي صلى

الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلاً أميناً : فقال : « لا بعثن اليكم أميناً حق أمين » : فاستشرف لها الناس (أى تظلموا) فبعث أبو عبيدة بن الجراح وفي رواية جاء العاقب والسيد صاحباً نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله ابعث معنا أميناً حق أمين فقال رسول الله « نبعث معكما رجلاً أميناً حق أمين فاندتمشرف لها أصحاب محمد قال قم يا أبا عبيدة »

وانما نال أبو عبيدة هذه الخطوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصدقه واتباعه أمره وخطيم حبه وطاعته له ومن أعظم ما يؤثر عنه من ذلك ما رواه الحافظ الجزري في أسد الغابة وابن عساكر في تاريخه أن أبا عبيدة لما كان ببدر يوم الوقعة جعل أبوه (وكان مع المشركين) يتصدى له وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثرت أبوه تصده قتله أبو عبيدة فانزل الله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون به واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) الآية

هذا غاية ما يؤثر من صدق ايمان أصحاب نبي بنبيهم واشرب قلوبهم بغض الشرك وتيقنهم أن الاسلام فوق العواطف وآية التوحيد تمحو صفحات القلوب حتى صورة الآباء اذا لم تشاكل بطهارة الايمان الابناء لا جرم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع أبا عبيدة بأمين هذه الامة الا لعلمه بصدق ايمانه وكمال يقينه لهذا روي انه صلى الله عليه وسلم طعن في خاصرة أبي عبيدة وقال : أن ههنا خويصرة مؤمنة : رواه ابن عساكر عن جابر . وروي عن موسى بن عقبة قال : قال أبو بكر الصديق : سمعت رسول الله (ص) قال لا بى عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالم لي

أحبّ اليّ من حرّ النّم : قالوا وما هن يا خليفة رسول الله (١) قال كنا جلوسا عند رسول الله فقام أبو عبيدة فأتبعه رسول الله بصره ثم أقبل علينا فقال : « انّ ههنا لكتفين مؤمتين » (٢) وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكتنا فظن اننا كنا في شيء كرهنا ان يسمعه فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال : « ما من أصحابي الا وقد كنت قائلا فيه لا بد الاّ أبا عبيدة » (٣) وقدم علينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ابث لنا من يأخذ لك الحق ويهطينه . فقال « والذي بعثني بالحق لارسان معكم القويّ الأمين » قال أبو بكر : فما تعرضت الامارة غيرها فرففت رأسي لأريه نفسي « فقال قم يا أبا عبيدة » فبعثه معهم : وشهد أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن ثبت مع رسول الله (ص) يوم أحد ونزع الحلقة التي دخلتا في وجه رسول الله من المغفر يومئذ فانزعت ثنيته فحسنتا فاه وصار أهتما فما رؤي قط أحسن منه هتما

وبالجملة فقد صحب أبو عبيدة (رض) النبي خير صحبة وكان كما روى المحدثون من عالية أصحابه وأعظم المقرين منه ولاقي من قريش في صحبته ملاقاته أهل الهجرة وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية ثم هاجر الى المدينة وكان ملازما لرسول الله شديد التمسك بأوامره حريصا على رضاه فتخاق باخلاقه ووقف على حقيقة دينه فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالاسلام والحنو على المساكين على جانب عظيم ولو بقي حيا لولي الخلافة لما اتصف به من حسن الشيمة وكرم الاخلاق والتقوى والعدل فقد أخرج ابن عساكر عن عمر بن الخطاب انه قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فان سئلت عنه قلت استخلفت أمين الله

وأمين رسوله

ثم كان له بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من الأثر في فتوح الشام ما بسطناه للقارئ في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وما ستلوه عليه مجملاً فيما يلي إن شاء الله

﴿ باب ﴾

— حروبه وفتوحاته —

(بالشام)

علمنا مما تقدم في الجزء الأول والثاني أن أبا بكر رضي الله عنه سلم أبا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التي وجهها إلى الشام وأمره بقصد حمص وأنه ولي قيادة الجيش العامة لما استخلف عمر رضي الله عنه وعزل عن إمارة الجيش خالد بن الوليد وقد اختلف المؤرخون في هل ولي الإمارة وهو في اليرموك أو على دمشق وذكرنا في الجزء الثاني رأينا في هذا الخلاف فلا حاجة هنا للمزيد وقد فصلنا ثمة أخبار حروبه في الشام وفتوحه فيه وإنما أحببنا أن نورد هنا مجمل فتوحه لملاقاة ذلك بترجمة هذا الصحابي الجليل والبطل الكبير فنقول

أول فتح عظيم كان لأبي عبيدة فتح دمشق التي فتحها بعد حصار سبعين ليلة وكان فتحها من جانبه صلحاً ومن جانب خالد بن الوليد غنوة وكان وهو على دمشق يسرح الجنود وعليها الأمراء لكي يشغلوا جيوش الروم عن إمداد دمشق كما ذكر في محله من الجزء الثاني من هذا الكتاب حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد لقيه القواد المحاصرون معه لدمشق وبعد فتح دمشق استخلف عليها أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ثم سار إلى

خفل من أرض الاردنّ وفل هناك جيوش الروم وأتى ييسان وطبرية وحاصرهما فصالحا على صلح دمشق ثم بعد ان وجه يزيد أبي سفيان الى سواحل دمشق سار الى حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن الاسود الكندي وقدمّ خالدا الى البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه وكتب لهم بذلك كتابا ثم ذهب الى حمص فافتتحها أيضا ثم رجع من هناك الى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص كما مر الخبر عن هذا وعن خلاف المؤرخين فيه في الجزء الثاني ثم سار الى حماه فصالحه أهلها ثم سار الى حاب وقدم خالدا الى قنسرين وعبادة ابن الصامت الى اللاذقية ثم ترك حصار حلب وسار الى حاضرها فافتتحه ثم صار الى انطاكية وجيوشه تحاصر حلب فكتب اليها عمر بالرجوع الى حاب وإتمام الفتح فعاد وفتحها ثم رجع الى انطاكية فحاصرها وفتحها صلحا ثم سير جيوشه تضرب في الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية وبلغت الفرات شرقا وآسيا الصغرى شمالا وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحتها عاملا ورتب فيها المراقبة والجيوش ونظم شؤون البلاد وبسط على أهلها جناح الرأفة والعدل وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والاناة والرفق حتى بات سلطان المسلمين احب اليهم من سلطان الروم فكانوا عوننا لهم على الفتح ونصراء على العدو كما رأيت ذلك في أخبار فتح حمص من سيرة عمر بن الخطاب وانما كان هذا ببركة اختيار عمر بن الخطاب للإمارة هذا الرجل العظيم وأمثاله من الامراء والعمال الذين كان يوليهم امور البلاد ويوسد اليهم قيادة الجيوش ومن لهم بمثلهم ومثله في هذا العصر بل وفي كل عصر

— كلمة في العمال —

اعلم ان عمران الممالك وترقي الدول يتوقف على امرين عظيمين هما صبغة الحكومة وامانة الرجال فالحكومة اذا كانت ذات صبغة دستورية اي حكومة مقيدة برأي الامة خاضعة لسلطة الشورى سعدت بها المملكة لغلبة الامانة في رجالها على الخيانة والعدل على الظلم وانما تغلب الامانة الخيانة في رجال هذه الحكومة لما هناك من الهيمنة الشرعية على الحاكم من المحكوم اذ الظلم كمين في النفس القوة تظهره والعجز يخفيه وانما يمنع النفوس ان تنزع منازع الظلم مانع القوة وهو هيمنة الشعب القانونية هذا في الحكومات الشورية واما الحكومات المطلقة فمانع تلك النفوس عن الظلم احد امرين : اما الزاجر النفسي وهو الشعور الديني الناشئ عن الورع والتقوى الباعثين على الخوف من بارئ النفوس : واما سيطرة السلطان وهذه لا تكون في الحكومات المطلقة الا من امير مستبد عادل اذ المستبد الظالم شأنه مع عماله شأنهم مع الرعية فلا سيطرة له على العمال ولا يرجى منه الخير

ومما لامشاحة فيه ان الحكومة الاسلامية في مبدأ ظهورها كانت كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب تشبه من بعض الوجوه الحكومة الشورية كما أنها لم تخلو من صبغة استبدادية وكيف ما كان حالها فقد علمنا ان العمال احوج ما يكونون الى المراقبة ليقوم بهم عمران البلاد وتنظم شؤون المملكة وسواء قدرنا ان هيمنة عمر بن الخطاب الشديدة على عماله كانت مستمدة من قوة السلطة المطلقة او من قوة السلطة القانونية او مشتركة بينهما فقد ساعده مانع القوة اي قوة الهيمنة الشرعية ومانع الدين على ان

ينزع من نفوس العمال آثار الظلم ويسطو بواسطتهم للرعية بساط الطأينة والعدل لتشهد للمسلمين سبل الفتح ويرتاح الشعوب المغلوبون لحكم الاسلام ويتفثوا ظلال السكون ويتبسطوا في مناحي العمران فما كان يختار للحكم والامارة الا احد رجلين رجل له دين يردعه ، أو رجل عنده خوف يمنعه ، وكلا الرجلين بالاضافة الى غرض الرعية والامام واحد .

فمن عماله الذين كان لهم دين يردعهم أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره ومع ما عرف عن هذا الصحابي الجليل والعامل الأمين والقائد العظيم من الاناة والرفق ولين الجانب والورع والزهد فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يتساهل معه بحق من حقوق الهيمنة عليه والنظر في سيرته كما لم يتساهل مع غيره ايضا ممن هو في طبقته في الورع أو من دونه فيه وذلك قياماً على أوامر الشريعة واداءً لحق الهيمنة على تمشية قوانين الشرع على نهج السداد وحرصاً على رضی الله والرعية

روى ابن عساکر ان عمر بن الخطاب أرسل الى أبي عبيدة باربعة آلاف درهم أو اربعمائة دينار وقال للرسول انظر ما يصنع فقسمها أبو عبيدة ثم ارسل بمثلها الى معاذ فقسمها معاذ الاً شيئاً قالت له امرأته : نحتاج اليه : فلما اخبر الرسول عمر قال الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا هكذا كان عمر يمتحن حتى اتقى عماله وارفقهم بالرعية وآمنهم على أمور الناس وأحكام الشرع لهذا بلغ العدل في عصره غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد وامتد سلطان المسلمين على قسم عظيم من الارض لم يسمع لسكانه شكوى من خيانة عامل في عمله وظلم في حكمه بل كانت الرعية قاطبة راضية عن حكم الاسلام متممة بالراحة آخذة في طريق الصعود الى قم

السعادة الاجتماعية ، والحياة المدنية ، آمنة من شرور الفتن التي يضطرب لها حبل الدولة ويختل نظام الاجتماع ومن تصفح تاريخ الاسلام ووقف على اخبار دوله لا يرى سبباً لاختلال امر دولة قط الا خيانة العمال وجورهم وتساهل الملوك في الاخذ على ايديهم اما بحكم الضرورة أو بحكم الضعف وسوء السياسة شأن كل الدول ايضاً لا دول الاسلام وحدها . وانا لنعجب من غلو بعض المؤرخين في ذم الحجاج بن يوسف الثقي عامل دولة بني مروان على المراق وانما يحوج الى الحجاج من هو مثل الحجاج اذ العامل الخائن اذ افسد قلوب الرعية بجوره وقبح سيرته يثير في نفوسها نائرة البغضاء على الدولة ويحفظ عليها قلوب الامة فتستعصي على الحاكم ويخرج امتلاك ازمته عن طوق الدولة الابلستعمال مثل الحجاج قوي الشكية قليل الرأفة هذا في الدول المطلقة كدولة الامويين واما في الدول المقيدة فقل ان يكون شيء من هذا وذاك وعلى تقدير حصوله فالرأفة تقوم مقام العنف والعدل يعني عن استعمال القوة والانسان اسير الاحسان وغاية ما يرمى اليه الظلمة والامان وحسبك شاهداً على هذا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي لما نحا في الحكم والامارة منحنى عمر بن الخطاب من حيث العدل وتبعية سيرة العمال وانتقاء اخيار الناس للولايات تألف قلوب الامة واستلست قياد الرعية بما ان اتضوا من حول بني مروان ثم لم يلبث ان عاد المروانيون بعده الى سيرتهم الاولى حتى ضف أمرهم وغلبوا على ملكهم لتفرق القلوب عنهم وانفضاض الناس من حولهم وما كان ذلك الا من نتائج اطلاق يد المال وامان هؤلاء في الجور . هذا بقطع النظر عن بعض الخلفاء الامويين الذين كانوا من حسن السيرة والقيام على العدل

نحيث لا يخرج عليهم خارج إباء لحكمهم أو تظلاً منهم وانما ذكرنا بني مروان مثلاً في الدول التي اصابها الضعف وقضى عليها سوء الادارة وجور العمال بالانحلال كما انا كتبنا هذا الفصل ليكون مقدمة لما عساه يرد منا من أخبار الدول في الغابر ، وعظة يتعظ بها الحاضر ، وانا والله اصبغنا في عصر احوج ما محتاج اليه فيه معرفة الملل التي تمكنت من جسم الدول الاسلامية فأودت بحياتها الاستقلالية الى ما يعلم ويشاهد ورحم الله امرأ اتعظ واعتبر ، وقوما أثر في نفوسهم توالى العبر ،

﴿ باب ﴾

أخلاقه وسيرته

كان أبو عبيدة كما قدمنا من كبار الصحابة وممن لازم النبي صلى الله عليه وسلم وتخلق بأخلاقه فكان متواضعاً زاهداً تقياً عاقلاً رزيناً لين الجانب مخفوض الجناح عالماً بالشرع ذا خبرة في أمور الحرب نصوحاً في خدمة المسلمين وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه انه أمين هذه الأمة : ومثله ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن عمر ابن الخطاب انه قال يوماً جالساً : تمنوا فتمنوا : فقال عمر بن الخطاب : لكنني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح : فقال له رجل ما ألوت ^(١) الاسلام : فقال ذاك الذي اردت : واخرج عن عبد الله بن عمر انه قال : ثلاثة من قریش اصح الناس وجوهاً وأحسنها احلاماً ^(٢) وابنتها جناناً ^(٣) ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لم يكذبوك . ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان . وأبو عبيدة بن الجراح

(١) اي مانقصته حقه (٢) عقولا (٣) قلباً

وها نحن اولاء ن نقل اليك شيئاً من سيرته وأخلاقه ليكون فيها وعظة
 وذكري لقوم يتفكرون فيها (في الزهد والتواضع) ما اخرج به الجزري
 في اسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال :
 قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقيه امراء الاجناد وعظماء أهل الارض فقال
 عمر : أين أخى ؟ قالوا من ؟ قال أبو عبيدة : قالوا يأتيك الآن : قال جاء
 على ناقة مخطومة ^(١) بحبل فسلم عليه وسأله ثم قال للناس انصرفوا عنا فصار
 معه حتى أتى منزله فنزل عليه فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه فقال عمر :
 لو اتخذت مناعاً أو قال شيئاً : قال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين ان هذا
 سيبلغنا المقييل

وفي رواية رواها ابن عساكر عن ابن عمر ان عمر حين قدم الشام
 قال لابي عبيدة اذهب بنا الى منزلك : قال : وما تصنع عندي ما تريد إلا
 ان تعصر عينيك عليّ : قال فدخل منزله فلم ير شيئاً : قال أين متاعك
 لا أرى إلا لبدًا وصفة وشنا ^(٢) وأنت أمير أعندك طعام : فقام أبو عبيدة
 الى جونه ^(٣) فأخذ منه كسيرات فبكي عمر . فقال له أبو عبيدة قد قلت لك
 انك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقييل : قال
 عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا ابا عبيدة

(ومن كريم أخلاقه وجليل تواضعه) مارواه ابن عساكر عن قتادة
 قال : قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام (يا أيها الناس اني ابرؤ
 من قریش وما منكم من احد أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى إلا وددت
 اني في سلاخه) ^(٤)

(١) قوله مخطومة الخطام زمام الناقة (٢) الشن هو القربة (٣) جونه أي سلمته (٤) أي في جلده

هكذا كان أمراء الامة وأئمتها لا يرون لانفسهم فضلاً على فرد من أفراد المسلمين الا بالتقوى كما علمهم نبهم عليه الصلاة والسلام وفهموه من قواعد الاسلام وكانوا لا يزالون ينادون بهذا على قمم المنابر وملأ الناس تهديباً لنفوس العامة وقياماً على نشر الفضيلة فلا يزيدهم هذا التواضع الا شراً فاولعوا وامتلأوا كلاً فثمة الناس واخذوا على شكائهم أرباب التتو والجبروت حتى دانت لهم الامم واعتلوا بدولتهم على كل الدول ومذا أصبح الجبروت والكبرياء من شعار الامراء واستعمل القوة والعنف ديدن اولي السلطة انقلب بدولهم الحال الى شر مآل مما سيأتي بيانه مجملأً أو مفصلاً في هذا الكتاب ان شاء الله

اذا كان أمير البلاد والقابض على زمام السلطة فيها ولي الولاية لا الدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطابق خدمة الامة ورجاء رضى الله كابي عبيدة بن الجراح الذي مات في ولايته ولم يملك من حطام الدنيا الا سينه وترسه ولم يك في بيته ما يأكل الا كسيرات من الخبز فالى أية درجة من السعادة يصل أهل ولايته ؟ وكيف تكون دولة هذا حال رجالها وتلك أخلاق عمالها ؛ انها ولا وراء في الحق دولة لو طال أمدها وامتدت حيناً من الدهر أيامها لطوقت الكرة بقوتها ، ونشرت على الارض أعلام نصرتها ، ولم تدع ساجداً على وجه البسيط اغير خالق العباد ، وناطقاً في ارجاء الارض ينطق بغير الضاد ، ولكن النعم عند من لا يعرف قيمتها قليل دوامها والسعادة الخالصة من شوائب الزمان عزيز في الارض مقامها (وتلك الايام نداولها بين الناس)

(ومن اخلاقه في الادب واين الشيمة) ما رواه ابن عساكر عن

موسى بن عقبة ان عمرو بن العاص لما كان في غزوة ذات السلاسل في مشارف الشام وخاف من جأبه الذي هو به بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده فندب رسول الله المهاجرين والانصار فانتدب فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب في سراة من المهاجرين وأمر عليهم ابا عبيدة بن الجراح وامت بهم عمرو بن العاص فلما قدموا على عمرو قال : أنا اميركم وأنا ارسلت الى رسول الله استمده بكم : فقال المهاجرون : بل أنت امير اصحابك وأبو عبيدة امير المهاجرين : فقال عمر وانا أنتم مدد أمددت بكم : فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجلاً حسن الخلق لين الشيمة متبعاً لآمر رسول الله (ص) وعهده : قال : تعلم يا عمرو ان آخر ما عهد الي رسول الله ان قال اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا وانك ان عصيتني لا طيعنك : فسلم أبو عبيدة الامارة لعمرو بن العاص

لا جرم ان ابا عبيدة مع حسن أدبه ولين شيمته كان زاهداً بالدينا لا يعبأ بالرياسة لشرفها ولا يرغب في الامارة لذاتها بل لما فيها من الثواب في خدمة الاسلام والمسلمين . واما عمرو بن العاص فقد كان حريصاً على الامارة راغباً بالدينا والآخرة يحب الظهور ويميل الى اتيان الاعمال الكبار ليكون كبيراً عند الناس جامعاً بين الاجرين أجر الاولى وأجر الآخرة كما سترى ذلك مبسوطاً في سيرته ان شاء الله

ومن أدبه ايضاً ما اخرج به ابن عساكر عن ابي البخري قال : قال عمر لابي عبيدة (اي يوم السقيفة) هلم ابايكم فاني سمعت رسول الله يقول انك أمين هذه الأمة : فقال أبو عبيدة كيف اصلي بين يدي رجل امره رسول الله ان يؤمننا حين قبض : يعني ابا بكر الصديق .

وأخرج أيضاً عن جابر قال : كنت في الجيش الذين مع خالد بن الوليد أمدهم أبو عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق : قال أبو عبيدة صلى بالناس فأنت أحق أتيتني تمديني : قال ما كنت لأصلي قدام رجل سمعت النبي يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح (ومن أخباره في الوعظ وحسن التأديب) ما رواه ابن عساكر عن أبي الحسن عمران أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير في المسكر فيقول : ألا رب مبيض لثيابه ، مدنس لدينه ، ألا رب مكram لنفسه ، وهو لها عدو مهين ، ادروا السيئات القديمة بالحسنات الحديثات فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن : ربما تبادر الى ذهن القاري أن أبا عبيدة يتغالى في الترغيب بقوله للمسلمين فلو أن أحدكم ألح الحديث وليس الأمر كذلك هو يريد بتلك السيئات سيئات الجاهلية لأنه إنما يخاطب قوما حديثي عهد بالاسلام فكأنما هو يريد أن يظم لهم شأن الاسلام وأنه يمجو ما قبله من سيئات الجاهلية اذا عمل احدهم بما امر به من اتيان الحسنات والأف لو اراد غير ذلك لكان ترغيبه الى هذا الحد غلوًا واغراقًا يتبرأ عن منله أبو عبيدة على مكانته من الدين وعلمه بالشريعة وصحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأيت في فصل (لا وثنية في الاسلام) كيف ندم أبو عبيدة على نقله حديثًا في الترغيب . وكما اودى سوء الفهم لمثل هذه الاحاديث والاخبار الى تشويش عظيم في افكار بعض الخلف حتى استدرجوا الناس بالملالة في الترغيب الى مدارج الاباحة وكل اضطراب دخل على عقائد المسلمين انما كان منشأوه سوء الفهم

— تنبيه —

قد أغفلنا باب الكتب هنا لاننا لم نعثر لأبي عبيدة على كتب غير بعض كتب عهد لاهل الذمة قد مرّ مثلها في هذا الكتاب للفاتحين اللهم الا كتاباً كتبه الى عمر بن الخطاب هو ومعاذ بن جبل وقد مرت صورته في سيرة عمر وكتاباً آخر اورده ابن عساكر في حديث طويل وهو جواب كتاب أرسله اليه عمر بن الخطاب يستدعيه به للشخص الى المدينة لما بلغه فتك الطاعون بالمسايين بالشام وهذا نص الكتاب

اني في جنود من المسلمين لن أرغب بنفسي عنهم وأني قد علمت حاجة امير المؤمنين التي عرضت لك وانك تستبقي من ليس بباقي فاذا اناك كتابي هذا خللني من عزمك وأذن لي في الجلوس

وقد اورد ابن عساكر هذا الكتاب في حديث طويل عن ابي موسى الاشعري كان بودنا ايراده في سيرة ابي عبيدة لما فيه من وجوب التوقي من الطاعون لو لم نر ان ابن الاثير وهن رواية هذا الحديث بسبب يقرب من الصحة

— باب —

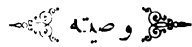
(وفاته)

قلنا في باب الاحداث على عهد عمران من اهمها طاعون عمواس وعمواس بين الرملة وييت المقدس وهي على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهور الطاعون فيها سنة ١٨ للهجرة وانتشر في البلاد فاجتاح السكان وكان أبو عبيدة كما في رواية ابن عساكر في ستة وثلاثين الفا من المسايين فلم يبق منهم الا ستة آلاف رجل ومات به كثير من الاعلام منهم أبو

عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن ابي سفيان وقد اختلف في مكان وفاة ابي عبيدة فمن قائل انه في بيسان ومن قائل انه في عمواس ومن قائل انه في الاردن ففي اسد الغابة عن عروة بن رويم ان ابا عبيدة انطلق يريد الصلاة ببیت المقدس فادركه اجله بفحل فتوفي بها : وكذا في رواية ابن عساکر عن ابن رُويم وزاد عليها انه اوصى قبل وفاته بقوله

اقرأوا امير المؤمنين السلام واعلموه انه لم يبق من امانتي شي الا وقد قت به وادّيته اليه الا ابنة خاتمة نكحت في يوم بقي من عدتها لم اكن قضيت فيها بحكومة . وقد كان بعث اليّ بمائة دينار فردوها اليه : فقالوا ان في قومك حاجة ومسكنة فقال : ردوها اليه وادفوني من غربي نهر الاردن الى الارض المقدسة ثم قال ادفوني حيث قضيت فاني اتخوف ان يكون سنة (اي بعده)

وفي رواية له ايضا عن سعيد المقبري قال : لما طعن ابو عبيدة بن الجراح بالاردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال



أني موصيكم بوصية ان قبلتموها لن تزالوا بخير : اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان وتصدقوا وحجوا واعتمروا وتواصوا وانصحوا لامرائكم ولا تغشوا ولا تلمسكم الدنيا فان امرأاً لو عمر الف حول ما كان له بد من ان يصير الى مصرعي هذا الذي ترون . الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون . واكيسهم اطوعهم له واعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله ، يامعاذ بن جبل صل بالناس : ومات فقام معاذ في الناس فقال

﴿ خطبة معاذ ﴾

﴿ بعد وفاة أبي عبيدة ﴾

يا أيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فان عبداً لا يلقى الله تاباً من ذنبه الا كان حقا على الله ان يغفر له : من كان عليه من دين فليقضه فان العبد مرتين بدينه : ومن اصبح منكم مهاجرا (مقاطعا) اخاه فليلقه فليصالحه ولا يذبحي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث : والدين العظيم انكم أيها المسلمون فحتم برجل ما أزعم اني رأيت عبداً أبرّ صدرا ولا ابعد من الغائلة ولا اشد حبا للعامة ولا انصح للعامة منه . فترحموا عليه رحمه الله واحضروا الصلاة عليه اه

ومن تبصر في وصية ابي عبيدة وخطبة معاذ رضى الله عنهما علم ان المسلمين انما سادوا يومئذ على الامم . بمثل هذه المناصحة وبذلك الاخلاق البارة ولانهم كانوا دائبين على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ينصح فقيرهم لغنيهم ويوصي بالحق اميرهم بأمورهم كما أمرهم الله في كتابه العزيز فكانوا له سامعين وبأمره مؤتمرين وحق لقوم جعلوا دأبهم التواصي بالحق والتناصرح بالمعروف ان يسودهم الله على الامم كما سود اولئك القوم البررة النصحاء الذين خلدوا للمسلمين نورا كاد يجود عن صفحات الزمان اقوام عطل من الفضيلة بعيدن عن فهم القرآن مستغرقون في سبات الوسواس والاهوام سريعة خطاهم الى التبدي بطيئة عن الصعود لا يوافق نداء المنادي منهم قلوباً واعية ولا آذاناً مصغية لهذا قد أخنى عليهم الزمان فهم يسبون ظالماً وينسبون تقهرهم اليه جهلا وما الزمان الا آية العبر ومستودع اسرار الامم ومظهر سنن الله في الخلق فهو مرشد

الماقل ومردى الجامل وان في هذا البلاغا تقوم يعقلون
 روى ابن عساكر ان ابا عبيدة شهد بدرا وهو ابن احدى واربعين
 سنة ومات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة
 وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والسكر وفي رواية انه مات ولم يعقب وفي
 رواية اخرى انه اعقب وانقرض عقبه رحمه الله ورضي عنه وجزاه وسائر
 الصحابة الكرام عن امتهم خير الجزاء
 ولما حضرته الوفاة استخلف على عمله معاذ بن جبل فتوفي بعده في
 الطاعون واستخلف قبل وفاته عمرو بن العاص فارتفع بالناس الى الجبال
 فانكشف عنهم المرض

- كلمة في القبور -

لا نريد بهذا العنوان البحث عن تاريخ القبور كائنا و ليس والاهرام
 وما شاكلها من معالم الوثنية الاولى وانما نريد الوقوف بفكرة القارئ عند
 اختلاف المؤرخين في مكان قبر ابي عبيدة كاختلافهم في تعيين كثير من
 قبور جلة الصحابة الكرام الذين دوخوا هذا الملك العظيم وتحملوا بتلك
 الشيم السماء وبلغوا من الفضل والتفضل والتقوى والصلاح غاية لم يبلغها
 احد من الاولين ولا الآخرين . وقد بسط المؤرخون اخبار اولئك الرجال
 العظام وعنوا بتدوين آثارهم العظيمة في فتوح الممالك والبلدان حتى لم يتركوا
 في النفوس حاجة للاستزادة ونعم ما خدموا به الامة والدين

ان القارئ اذا وقف بفكره عند هذا الامر وقفة التأمل لا يلبث ان
 يأخذه العجب لأول وهلة من ضياع قبور أولئك الرجال العظام واختفاء
 امكنتها عن نظر نقلة الاخبار ومدني الآثار على جلاله قدر اصحابها وشهرتهم

التي طبقت الآفاق وملأت النفوس اعظاماً لقدرم واكباراً لجلال أعمالهم
وشأنهم عليهم وتكريماً لذكر أسمائهم وشكراً لآلائهم واعترافاً بجميلهم وإقراراً
بفضيلة سبقتهم بالإيمان ونشرهم دعوة القرآن

لاجرم ان القاريء اقل ما يتحدث به النفس عند التأمل في هذا الامر
ان اولئك الرجال ينبغي ان تعلم قبورهم بالنعيمين، وتشاد عليها القباب العاليات
ذات الاساطين ، اذا لم يكن لشهرتهم بالصلاح والتقوى وصدق الايمان
وصحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام فلما أتوه من كبار الاعمال ، التي تعجز
عنها اعظم الرجال ، فكيف غابت قبورهم عن نظر المؤرخين ، ودرست
اجداثهم التي تضم أكابر الصحابة والتابعين ، حتى اختلف في تعيين أمكنتها
أرباب السير ، وعفا من أثرها الاثر ، إلا ما علموه بعد بالحدس
والتخمين ، وأظهروا أثره بالبناء عليه بعد ذلك الحين ، مع ان المشاهد عند
المسلمين صرف العناية الى قبور الاموات بما بلغ الغاية بالتأنيق في رفعها
وتشييدها ورفع القباب عليها واتخاذ المساجد عندها لاسيما قبور الامراء
الظالمين الذين لم يظهر لهم أثر يشكر في الاسلام ، والتمشيخة والدجالين
الذين كان أكثرهم مجهل أحكام الايمان ، ولا نسبة بينهم وبين اولئك
الرجال العظام كأبي عبيدة بن الجراح واخوانه من كبار الصحابة الكرام
الذين تلقوا الدين غضا طريا ، وبلغوا بالتقوى والفضيلة مكانا قصيا ،

والجواب عن هذا ان الصحابة والتابعين لم يكونوا في عصرهم باقل
تقدراً لقدر الرجال وتعظيماً لشأن من نبغ فيهم من مشاهير الابطال واخيار
الامة الا أنهم كانوا يأنفون من تشييد قبور الاموات وتعظيم الرفات
لتحققة النهي الصريح عن ذلك من صاحب الشريعة الغراء الحنيفية السمحة

التي جاءت لاستئصال شأفة الوثنية ومحو آثار التعظيم الرفات ، او المكوف على قبور الاموات ، ويرون ان خير القبور الدوارس وان أشرف الذكر في أشرف الاعمال . لهذا اختفت عن أتى بعد جياهم ذلك قبور كبار الصحابة وجلة المجاهدين الا ما ندر ثم اختلف نقلة الاخبار في تعيين امكانها باختلاف الرواة وتضارب ظنون الناقلين . ولو كان في صدر الاسلام أثر لتعظيم القبور والاحتفاظ على أماكن الاموات بتشييد القباب والمساجد عليها لما كان شيء من هذا الاختلاف ولما غابت عنا الى الآن قبور اولئك الصحابة الكرام كما لم تغب قبور الدجاجة والمنمشيخين التي ابتدعها بعد العصور الاولى مبتدعة المسلمين وخالفوا فعل الصحابة والتابعين . حتى باتت اكثر هذه القباب تمثل هياكل الاقدمين وتعيد سيرة الوثنية باقبح انواعها وأبعد منازعها عن الحق . وأقربها من الشرك . ولو اعتبر المسلمون بعد باختفاء قبور الصحابة الذين عنهم أخذوا هذا الدين وبهم نصر الله الاسلام لما اجتروا على اقامة القباب على القبور وتعظيم الاموات تعظيماً يباه العقل والشرع وخالفوا في هذا كله الصحابة والتابعين الذين أدوا الينا أمانة نبينهم فاضعناها وأسرار شريسته فعبثاً بها : واليك ما رواه في شأن القبور مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الاسدي قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ص) أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته : وفي صحيحه ايضاً عن ثمامة بن شفي قال : كنا مع فضالة بن عبيد بارض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي . ثم قل سمعت رسول الله (ص) يأمر

بتسويتها^(١)

هكذا بلغونا الدين وادّوا إلينا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تأكيذاً لهدى الأمانة بدأوا بكل ما أمرهم به الرسول بأنفسهم لذاتهم بسنتهم ونهتدي بهدي نبيهم ولكن قصرت عقولنا عن إدراك معنى تلك الجزئيات . وانحطت مداركنا عن مقام العلم بحكمة التشريع الإلهي والامر النبوي القاطي بعدم تشييد القبور اتقاء التدرج في مدارج الوثنية . فلم نحفل بتلك الحكمة وتحكّمنا بعقولنا القاصرة بالشرع فحكّمنا بجواز تشييد القبور استحباباً لمثل هذه الجزئيات حتى أصبحت كليات وخرقاً في الدين وإفساداً لعقيدة التوحيد إذ مازلنا نتدرج حتى جعلنا عليها المساجد وقصدنا رفاتنا بالندور والقربات ووقعنا من ثم فيما لاجله أمرنا الشارع بطمس القبور كل هذا ونحن لانزال في غفلة عن حكمة الشرع نصادم الحق ويصادمنا حتى نهلك مع الهالكين

انتهى ما احببنا ايراده من سيرة ابي عبيدة رضي الله عنه وها نحن اولاء نشرع بسيرة سعد بن ابي وقاص الذي هو من مشاهير الدولة العبرية فنقول



(١) الاحاديث الواردة بالنهي عن تشييد القبور وتعظيمها ولمن من يتخذها مساجد ويقصدها بالندور كثيرة قد استقصى الكلام عليها كثير من الائمة المصلحين كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وامثالهما فلتراجع في مظانها من كتب القوم كالواسطة واغاة اللهفان وغيرهما

— سعد بن ابى وقاص —

❖ باب ❖

❖ حاله في الجاهلية ❖

❖ نسبه وأصله ❖

سعد بن ابى وقاص واسم ابى وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب
(كما في اسد الغابة) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب
ابن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة القرشي الزهري يكنى ابا
اسحاق وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس

— مكانته عند قومه —

(وصناعته)

كانت صناعة سعد بن ابى وقاص كما تقدم في صدر الجزء الاول
بري النبيل . واما مكانته عند قومه وسيرته فيهم فلم نتف على شيء منها إلا
ان مكانته عند قومه تعلم بالضرورة من درجة غناه فانه كان قبل الهجرة
غنياً موسراً ويستدل على غناه بالحديث الآتي الذي (روي في الصحاح
والسنن) عن سعد أنه شكى في مكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال يا رسول الله قد بلغ مني الوجع ماترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلا
ابنة أفاوصي بشئ مالي : قال لا : قال فالباشطر : قال لا : ثم قال « الثالث
والثالث كثير انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون
الناس وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا اجرت عليها »

﴿ باب ﴾

﴿ اسلامه وصحته ﴾

(اسلامه)

سعد بن ابي وقاص ، من السابقين الاوّلين الى الاسلام الذين وافقت دعوة التوحيد منهم قلوباً واهمية فبادروا لقبولها بمبادرة الظمان للماء . والعليل للدواء . والنفس الحساسة من طبعها تتلعلل من الشرك وتئنّال من عبادة الاوثان وانما هي تتقرب نوراً ينقشع عنه ظلام الوثنية وميناً يمزق عنها غشاء الحيرة لتبصر سبيل النجاة من متاعب الحياة الشركية وتتوصل لاطراح الآصار الجاهلية . وسعد رضي الله عنه لم يلبث ان طرق سمعه داعي السلامة والسلام حتى كان رابع أربعة في الاسلام

روى ابن عسّاكر في تاريخه وابن الاثير في اسد الغابة عن عائشة ابنة سعد قالت سمعت ابي يقول : رأيت في المنام قبل ان اسلم بثلاث كآني في ظلمة لا ابصر شيئاً اذ أضاء لي قمر فأتبعته فكأني انظر الى من سبقني الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى عليّ بن ابي طالب والى ابي بكر وكأني أسألهم متى انتهيت الى هاهنا قالوا الساعة : وبلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفياً فلقيته في شعب ابياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمني احد الا هم : وروى ابن عسّاكر ان سعداً اسلم وهو ابن سبع عشرة سنة

ليس العجب من مبادرة سعد الى الاسلام بعد ان استبان له طريق الرشد فدفعه صفاء وجدانه الى التملص من حبال الوثنية وانما العجب من هذا الدين الذي ما دخل قلباً الا تمكن منه تمكن الروح من الجسم .

ورسوخ فيه رسوخ الاطواد فاستحال أن تدركه العواصف او تسطو عليه
 الاغراض شأنه مع المسلمين الاولين ومن بعدهم الى هذا اليوم . وان ما نال
 الصحابة من الاذى وما عانوا من انواع الشدائد في سبيل تمسكهم بعروة
 الاسلام الوثيق والتفافهم على صاحب الشريعة الغرما لما تنوء به الجبال ومع
 هذا فلم يدفعهم عن شأنهم دافع . ولم يمنعهم عن المضي في سبيل الهدى
 والرشاد مانع . ومن هذا القليل ما روى عن سعد بن ابي وقاص قال :
 نزلت هذه الآية فيّ (وان جاهدك على ان تُشرك بي ما ليس لك به علم
 فلا تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) قال كنت رجلاً برّاً بأُمى فلما
 اسلمتُ قالت : ياسعد ما هذا الدين الذي احدثت لتدعن دينك أو لا
 آكل ولا اشرب حتى أموت فتميّرت بي : فقال لا تغفلي يا أمت فاني لا أدع
 ديني : قال فسكّثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت وقد جهدت فقلت : والله
 لو كانت لك الف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء : فلما
 رأيت ذلك اكلت وشربت فانزل الله هذه الآية : اخرج به ابن الاثير في
 اسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن أبي عثمان النهدي : وفي اسد الغابة
 عن ابن اسحاق : قال كان اصحاب رسول الله (ص) اذا صلوا ذهبوا الى
 الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم فيينا سعد بن أبي وقاص في نفر
 من اصحاب رسول الله (ص) في شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر
 من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فانتلوا فضرب
 سعد رجلاً من المشركين باحيي جل فشجبه فكان أوّل دم اهرق في
 الاسلام : والصحابة الاولين من مل هذا أخبار كثيرة تدل على صبرهم على

المكاره وتحملهم ضروب الالهانة من المشركين استتمسكاً بحبل الاسلام
ووفاءً بهد الايمان وايقاناً بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام

حجته ﷺ

كان سعد بن أبي وقاص من خيرة اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
وأحد العشرة المبشرين بالجنة صاحب النبي صحة مخاص في ايمانه وجهاد
بين يديه جهاداً يشهد له بعظيم حبه له وتفانيه بين يديه اذ شهد معه
المشاهد كلها وكان معه يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث وكان
ممن ثبت معه يوم احد وقاتل دونه قتال الابطال . وروي عن الزهري انه
قال : رعى سعد يوم احد الف سهم : وجمع له رسول الله يومئذ أباه وأمه
اذ قال له « ارم فداك أبي وأمي ارم ايها الغلام الحزور »^(١) رواه في
اسد الغابة عن علي بن ابي طالب (رض)

وعابه يوماً بنو أسد في الكوفة فقال راداً عليهم : اني لاول العرب
رمي بسهم في سبيل الله والله ان كننا لنغزو مع رسول الله (ص) ما لنا
طعام الا السمر وورق الحبلبة حتى ان كان احدنا ليضع كما تضع الغنز (وفي
رواية الشاة) ما بنا خلط ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى^(٢) على الدين لقد
خسرت اذا وصل عملي : رواه ابن عساكر وابن الاثير عن قيس بن ابي
حازم : ومن اجل ما يورث عنه في صحبته ما رواه ابن عساكر عن عبد الله بن

(١) الغلام الحزور أي القوي (٢) قوله السمر وورق الحبلبة كلاهما شجر
وقيل ان الاول هو شجر الطلح والثاني نبات يشبه اللوباء . وقوله كما تصنع الشاة
أي كما ترعى يريد أنهم بلغ بهم الصبر مع رسول الله على قلة الطعام أن كانوا يرعون
ذلك النبات كما ترعى الشاة : وقوله ما بنا خلط والخلط بسكون اللام وكمرها
التملق وقوله تعزرنى من العزرو وهو اللوم او التوقيف على باب الدين واحكامه كما في القاموس

عاصم بن ربيعة أن عائشة قالت: سهر رسول الله مَقْدَمُهُ المدينة ليلة فقال « ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » فبينما نحن كذلك اذ سمعنا خشخشة سلاح فقال « من هذا » فقالوا: سعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله (ص) « ما جاء بك » فقال سعد وقع في نفسي خوف على رسول الله فجئت أحرسه: فدعا له رسول الله: قالت فنام رسول الله حتى سمعت غطيته في نومه

وهذا يدل على منتهى الحرص من سعد رضي الله عنه على حياة نبيه وراحته صلى الله عليه وسلم وكأنه شعر في تلك الليلة بخاطر على النبي (ص) كما شعر النبي بذلك أيضاً فبادر ليحرسه بنفسه وبقية أذى عدوه شأن صحابته كلهم الذين كانوا يتنافسون في خدمته ويحرصون على الذب عنه والذود عن حوضه وتعزيز دعوته واعلاء كلمته جزاهم الله خير الجزاء وقد كان من حب رسول الله لسعد ان دعا له ان يسدد رميته ويحجب دعوته فكان مجاب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وابن مسعود يتحاشون دعوته وقد روى المحدثون كثيراً من الاخبار فيمن اصابته دعوة سعد رضي الله عنه

— باب —

حروبه وفتوحاته

قد كان سعد بن أبي وقاص من شجعان قریش وكماتهم لهذا كان لما استشار عمر فيمن يوليه حرب الفرس ان أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه: انه الاسد عاديًا: كما رأيت في خبر مسير سعد الى العراق في الجزء الثاني فانتفى عمر الى رأيهم وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الاسلامية في حرب

الفرس وأوصاه بما أوصاه فسار بالجيوش حتى انتهى الى شراف وهناك
عشر الناس وأمر على أجنادهم وعبّأهم وفرق المسالحي في الاطراف وسد
الفروج المخيفة ولما أتم اكل شيء عدته ارتحل الى القادسية وهي المكان
الذي اختاره لحرب الفرس وكان على حافة البرية مما يلي أرض العرب وقد
مرّ تفصيل الخبر عن مسير سعد الى القادسية في سيرة عمر ونشير هنا
الى ما كان بعد وصوله القادسية من اخباره مع الفرس فنقول

لما نزل سعد القادسية نفر أهل السواد (سواد العراق) الى كسرى
يزدجرد يستغيثونه وأخبروه بنزول العرب القادسية وتفرق سراياهم للغارة
وطلبوا منه النجدة وقالوا ان أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا

علم يزددجرد من وقائع العرب الاولى مع جيوشه التي دحرت في
العراق أيام خالد بن الوليد والمنتهى بن حارثة ان العرب بعد الاسلام ليسوا
العرب قبله وان القوم الذين كانوا على زعم الفرس من رعاة الابل أصبحوا
من رعاة الاعم وقادة الفتح فلا ينفع معهم الا الجدد ولا يقاومون الا ببذل
الجهد في اعداد العديد والعدة فاستدعى اليه رستم وكان قائد قواد الدولة
وصاحب الرأي فيها وقال له اني أريد اني أوجهك في هذا الوجه فأنت
رجل فارس اليوم وقد ترى ماحل بالفرس مما لم يأتهم مثله

كان رستم صاحب رأي ودربة وقد وقف على حال المسلمين وأوجس
منهم خيفة على دولة الفرس فرأى ان مقامه مع كسرى لندبير أمور
الحرب وتسريح الجيوش ومناظرة القواد أولى من حضوره ساحات
الحرب بنفسه ضناً بها عن مواقف الخطر. فرغب الى يزددجرد استبقائه
في عاصمة الدولة ليمد القواد بالرأي وكان مما قاله له يومئذ ان العرب لا تزال

تهاب المعجم ما لم تضربهم بي واملأ الدولة ان تثبت بي اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر ، والاناة خير من العجلة ، وقتل جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بكرة وأشد على عدونا :

فأبى عليه وأعاد رسم كلامه وقال : قد اضطرني تضييع الرأي الى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به فأنشدك في نفسك وملكك دني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس فان تكن لنا فذلك وإلا بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بداً صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حائون فاني لا أزال مرجوًا في أهل فارس ما لم أهزم : فأبى إلا ان يسير نخرج حتى ضرب عسكره بساباط : وجاءت الاخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر فكتب اليه ان يستعين بالله ولا يجزع وان يرسل الى يزدجرد اولاً يدعوهُ الى الاسلام كما مر الخبر عن هذا في سيرة عمر رضي الله عنه : فأرسل سعد نفرًا من أهل الرأي منهم النعمان بن مقرن وبُسر بن أبي رهم وحَمَلَة بن حويّة وحَنْظَلَة بن الربيع وفرات بن حيان وعدى بن سهيل وعطارد بن حاجب والمغيرة بن زرارة بن النباش الاسدي والاشعث بن قيس والحارث ابن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معديكرب والمغيرة بن شعبة والمغنى ابن حارثة دعاة . نخرجوا من المعسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رسم واستأذنوا على يزدجرد فخبسوا ريثما أحضر يزدجرد وزراءه ورسم معهم واستشارهم فيما يصنع واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتمهم خيول كلهم صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له سالم ما جاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل اننا

تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء
آثرته فقالوا بل تكلم فقال :

ان الله رحمتنا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا
على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدعُ قبيلة إلا وقاربها منها فرقة وتباعد
عنه بها فرقة . ثم أمر ان نبتدئ الى من خلفه من العرب . فبدأنا بهم
فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، ففرغنا جميعاً
فضل ما جاء به على الذي كنّا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا ان نبتدئ
بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف . فنحن ندعوكم الى ديننا وهو
دين حسن الحسن . وقبّح القبيح كله فان أيتّم فأمر من الشر هو أهون
من آخر شر منه . الجزية . فان أيتّم فلمناجزة (الحرب) فان أجبتكم الى
ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وقنا على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم
وشأنكم وبلادكم . وان بذلتم الجزى قبلنا ونماكم وإلا قاتلناكم :

ومن نظر في كلام النعمان هذا نظر منصف لا يتعصب لشكر ولا دين
يرى ان أصول الدعوة الى الاسلام على هذا الوجه خير وسيلة لهداية الامم
بلا إكراه ولا إجبار ولا إكراه إلا ما يصاحب الدعوة من القوة التي يراد بها حمايتها
وإظهار شأن أهلها وقوتهم ومجدهم لمن لا يرى قوة دين وصحته من البشر
إلا بقوة أهله . والانسان أكثر ما يخضع للحس دون الوجدان إلا من
اطرح رداء التقليد ، وأطلق عقله من قيود الاوهام ، فوضع كل ما يرد عليه
موضع المحاكاة والنقد ، وهؤلاء عددهم قليل ، في كل أمة وجيل
لم يقنع يزددجرد بما سمع من كلام النعمان فأجابه بجواب فظ يظهر

فيه امتنانه للعرب وعجبه من ظهورهم بذلك المظهر العظيم بعد ان كانوا من افقر الشعوب وادناهم واجهلهم : فأجابه المغيرة بن زرارة بان ما وصف به العرب من الجهل وسوء الحال هو حق الا انه قد كان ذلك قبل الاسلام واما بعده فالحال صار غير الحال . ثم دعاه الى ما دعاه اليه النعمان من قبول الاسلام . او يدفع الجزية عن يد وهو صاغر . او السيف فغضب يزدجرد من ذلك واستدعى بوقر من تراب فقال احملوه على اشرف هؤلاء . ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن وقل ارجعوا الى صاحبكم واعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم اورده بلادكم حتى اشغلكم بانفسكم بأشد مما نالكم من سابور : فتقدم عاصم بن عمرو وقال انا سيد هؤلاء وحمل التراب على عاتقه وخرج الى سعد وقال ابشر فوالله لقد اعطانا الله اقاليد ملكهم

قال يزدجرد لرستم بعد ان فارقه الوفد ما كنت ارى ان في العرب مثل هؤلاء . ما اتم باحسن جواباً منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمراً ليدركنهُ او ليموتنَّ عليه . على اني وجدت افضلهم ائتمتهم حيث حمل التراب على رأسه : فقال رستم أيها الملك انه اعقاهم وتطير من ذلك والعجيب في هذا الخبر ان يمتد يزدجرد ان القوم وعدوا أمراً هم مدركوه ثم يعاملهم بمثل تلك المعاملة التي يريد بها تأكيد امتنانه لهم واحتقار اسرهم وهذا بلا ريب من الخرق في الرأي والتناهي في الكبرياء الباطلة وسوء التدبير مع قوم سيكونون عما قريب سادة ملكه وعو بتوقع منهم ذلك ويحدث قومه به : ولا جرم ان اكثر ما مهد للمسلمين يومئذ طريق الفتح والغلبة على الامم هو استصغار شأنهم من ملوك الارض

وقادة الشعوب بسبب ما كانت عليه تلك الامة البدوية قبل الاسلام من الضعف وسوء الحال وتفرق الكلمة على انه كان في مظاهرهم واخلاقهم بعد الاسلام ما يكفي لاعتبار اعدائهم بتغير احوالهم وينذر بملو شأنهم على من سواهم والله في هذا شأن هو بالانه

أخذ سعد بعد ذلك في بث السرايا للغارات على الاطراف ومناوشة مسالح الفرس وسار رستم من ساباط وبعث على مقدمته الجالينوس في اربعين ألفاً وخرج هو في ستين ألفاً وجعل على ميمته الهرمزان وعلى ميسرته مهران وكتب الى أخيه البندوان في مرمة الحصون واعداد العدة ثم سار فنزل بكوثي وأني له هناك برجل من المسلمين فقال له ما جاء بكم وماذا تطلبون : فقال جئنا نطلب موعود الله بمثل أرضكم وأبنائكم ان أيتهم ان تسلموا : قال رستم فان قتلتهم قبل ذلك : قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين : فقال رستم قد وضعنا أذن في أيديكم : فقال أعمالكم وضعتمكم فأسلمكم الله بها فلا يفرنك من ترى حولك فالك لست تحاول الانس انما تحاول القدر : فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فعات جيشه في النواحي وغضب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقموا على النساء وشربوا الخمر فضج أهل برس الى رستم : فقال يا معشر فارس والله لقد صدق العربي والله ما أسلمنا الا أعمالنا . والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم . ان الله كان ينصركم على العدو ويمكّنكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان . فاذا تغيرتم فلا أرى الله الا مغيراً ما بكم وما أنا بآمن من ان ينزع الله سلطانه منكم : ثم أتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه

وكنّا نحسن إليكم ونحفظكم . ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة :
ليس أمرنا كأمرك . أنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمنا الآخرة
وقد كنّا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه :
فقال لرسوله اني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم
منهم واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه
أحد الا ذل . ولا يمتصم به أحد الا عز : فقال رستم : ما هو ؟ قال : أما
عموده الذي لا يصلح الآبه فشهادة ان لا إله الا الله وانّ محمداً رسول الله :
قال وأي شيء أيضاً قال واخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله
والناس بنو آدم وحواء اخوة لاب وام : قال ما أحسن هذا : ثم قال رستم
أرأيت ان أجبت إلى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون ؟ قال
أي والله : قال صدقتني أما ان أهل فارس منذ ولي ازديشير لم يدعوا أحداً
يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا
طورهم وعادوا أشرفهم : فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع
ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا :
من تأمل في هذه المحاورة علم ان دعوة المسلمين لما كانت مبنية على
الاخاء والمساواة واعتناق الطبقات الدنيا من رقى العبودية لاسيما في الامم
القديمة التي كانت دولها عريقة في الاستبداد واشراف مملكتها مستعبدين
للشعب كان أصعب شيء على الامراء والملوك قبول هذه الدعوة لما
يتوقعونه بمدّها من وجوب كف يد القهر والقوة التي هم باسطوها على
الناس لهذا كانوا يفضلون الحرب مع المسلمين على قبول دعوة الاسلام

ويزجون بالعامية في غمار الحروب لا دفناً عن الدلالة بل منعاً عن الخير واستثارة بالسلطة وتشبثاً باسم السيادة المطلقة على الشعب بدليل ما سمعت من هذه المحاوره وما نتلوه عليك من تمة ما كان من الخبر عن رستم فانه بعد ان سمع ما سمع من زهرة أحب ان يسمع اشراف أمته وقواده من المسلمين مثل ما سمع لعلهم ينزعون الى اطلاق حرية الشعب والتسامح بحقوق الطبقة الدنيا من الناس ليكونوا جميعاً اخوة في الدين سواء امام العقل والعدل : فدعا رجال فارس وذاكرهم في هذا فأنفوا وهو يتوقع منهم ذلك لهذا أرسل الى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم اليهم فقال له ربي بن عامر متى نأتهم جميعاً يروا انا احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل : فأرسله وحده فسار اليهم في أبسط زي من اللباس والعدة واقتحم بفرسه بساط رستم ونما رقه ثم دنا منه وجلس على الارض ولم يشأ ان يجلس على البساط والنمارق فسئل ما جاء بك ؟ فدعاهم الى الدين أو الجزية أو الحرب وبعد كلام طويل بينه وبين رستم استمهلته لينظر وقومه في هذا الامر فأمله ثلاثاً فقال له : وهل أنت سيد قوهك ؟ قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلامهم فخلاً رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم كلاماً أعز وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ ترغيباً لهم في اجابة دعوة الاسلام : فقالوا معاذ الله ان نميل الى دين هذا الكاب أما ترى الى ثيابه ؟ فقال ويحكم لا تنظروا الى الثياب ولكن انظروا الى الرأي والكلام والسيرة ان العرب تستخف باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم

ولعل رستم استمال أمراءه بعد ذهاب ربي بن عامر أو أراد تردد

رسل المسلمين عليه رجا، اختناع قومه منهم فلما كان من الغد أرسل الى سعد بن أبي وقاص أن ابعث الينا ذلك الرجل : فبعث اليهم حذيفة بن محصن فأقبل في نحوزي سابقه ووقف على رستم راكباً قال : انزل : فأبى فقال له ما جاء بك ولماذا لم بجى الاول ؟ : قال : ان أميرنا يحب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء : ثم سأله رستم عما جاء بهم فأجابه مثل الاول فصرفه ثم بعث من الغد أن ابعثوا الينا رجلاً : فبعث المغيرة بن شعبة داهية القوم في عصره فأقبل اليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة (مرى سهم) لا يوصل الى صاحبهم حتى يمشي عليها فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريريه فوثبوا عليه ومعكوه وأنزلوه فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم أنا معشر العرب لانستعبد بعضنا بعضاً فظننت أنكم تواسون قومكم « أي تساونهم بأنفسكم والخطاب كما لا يخفى للامراء » كما تنواسي فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، فان هذا الامر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، واني لم آتكم ولكن دعوتوني ، اليوم علمت انكم مغلوبون وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول :

قال المغيرة ما قال على ملائ الناس بن جندى وأمير وهو يسمع بصوته الجمهوري كل الناس فسرى كلاهما في الرؤوس تسرى الشرارة الكهربية في الاسلاك وانتفض لها القوم كما ينتفض المصفور بلله القطر ماذا كان بعد هذه الهزة الكهربية . والدعوة الاسلامية ؟ كان ان السفلة هبوا هبوب المستهتزين من سبات عميق فنادوا : صدق والله العربي

فيما قال : واما الدهاقين فكأنه صب عليهم صوت من العذاب وقالوا ، والله لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لاتزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله اولينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة : ولم يكن بعد هذا من الدهاقين أي أشراف البلاد وسادة الامة الذين يعتبرون بقية الشعب الذين هم دونهم عبيداً لهم كما رأيت من قول اولئك الدهاقين الا ان أصروا على الحرب ورفض ما دعاهم اليه المسلمون فانضى ذلك الى زوال دولتهم وذهاب ملكهم وانما حال بينهم وبين الاسلام واستبقاء ملكهم في أيدي ملوكهم حب الشهوات والحرص على السيادة المطلقة التي أرادهم على تركها المسلمون وعبرهم بها المغيرة وسابقوه . وكما أزال حب السلطة الاستبدادية من الدول ودمر من الممالك وليس اشأم على البشر وأشد خطراً على الدول من حكومات تأصل في رجالها حب الاستبداد وبسطيد القهر على طبقات المحكومين ، واستفحل فيها شأن الاشراف فكانوا أربابا والرعية مربوبين ، تساق بأيديهم الى حيث تلاقي الختوف وتعاني أنواع الشقاء

تأصلت جرثومة الاستعباد ونمت ملكة الاستبداد في نفوس أشراف الفرس وغيرهم من الامم القديمة فجاء الاسلام يدعوا الى الحرية وان البشر كلهم سواء ، أبوهم آدم والام حواء ، وانما أمر الشعوب في الامم القديمة الى اشرافهم كما رأيت فهم لامرائهم تبع ولذوي السيطرة عليهم مقلدون قد سدت دونهم المنافذ بسور من سطوة اولئك الجبارين ، فان فصل اليهم دعوة الاسلام الى المساواة في الحقوق والاخاء في الدين ، وعدم التفاضل إلا بالعلم ، إلا بآباهاب قادتهم ، وقهر سادتهم . فهل يؤخذ على الاسلام وهذا شأنه في اسعاد البشر ان جعل أساس الدعوة الموعظة وحياتها

القوة ، لا والله ان في هذا المنتهى الحكمة بالاضافة الى اخلاق تلك الامم وحياتهم التي هي ذل محض ولده طول الصبر على الضيم والرضوخ لسيطرة الامراء الجائزة وسلطانهم القاهر حتى أصبح مملكة من ممالك النفوس تظهر حيناً وتختفي آخر واليك الدليل

دعا المسلمون رجال الفرس الى ما دعوهم اليه فأبوا واستكبروا ومنشأ الالباء كما علمت هو الحرص على السيطرة الاستبدادية والخوف من محو آية التفاضل او النهوض بالسفلة الى مقام الحرية الذي يلحقهم بالاشراف ويقضي على سيطرة هؤلاء بالضعف والزوال فزجوا بالعامية في غمار الحرب والحقوا بدولتهم الهلاك : لهذا اذا نظرنا الى الدعوة الاسلامية يومئذ نجد انه قد نشأ عنها امران عظيمان — أمر ظهر أثره في الحال ، وأمر ظهر أثره في الاستقبال ،

فأما الامر الذي ظهر أثره في الحال فهو رفض زعماء الفرس ودهاقينهم للاسلام ورضاهم بحرب المسلمين دون قبول دينهم خوفاً من انتشار تعاليمه المؤذنة بغل ايدي الاشراف حتى كان من ذلك توقف انتشار الاسلام بالدعوة الابعده حمايتها بالقوة فتسلط العرب على مملكة الفرس ومحو آثار الوثنية من البلاد :

وأما الامر الذي ظهر أثره في الاستقبال فهو ان الرضوخ لسيطرة الاشراف لما صار مملكة في نفوس الاعاجم كانوا لها اطوع ، واليها اميل ، ولما بسطت عليهم دولة العرب جناح العدل ورفعت فوق ربوعهم لواء الاسلام اغتبطوا حيناً بساطان المسلمين ثم لما امتد ملك العرب في الشرق والغرب وتفرقت عصبيتهم في انحاء الممالك وقلت الحامية منهم بين ظهري الاعاجم وافضوا

الى هؤلاء بأمور الملك وشاركوهم في شؤون الدولة بحكم الوحدة الاسلامية والجامعة للملّة ، نزع الأعاجم الى سيرتهم الأولى ونبض فيهم عرق القوّة فتحزبوا أحزاباً تنازى الدولة العربية وتحاول هدم أركان حكومتهم الديمقراطية واستبدالها بحكومة الاشراف الارسطوقراطية ولم يروا اعون لهم على هذه البغية إلا الدعوة لآل البيت النبوي الشريف فبثوا منهم الدعاة في الآفاق الاسلامية يدعون لآل البيت في السرّانة والعلانية أخرى حتى تمكنوا من كبد الدولة المروانية وأوغروا عليها صدور الامّة وشوشوا على ملوكها تدبير أمور الرعية فكان ما كان من تتبع هؤلاء لاهل البيت بالقتل والتشريد حتى استفحل الخطب وأحفظوا عليهم قلوب المسلمين فنألبوا على قلب دولتهم مراراً عدة انتهت بظهور الدولة العباسية وتسليمها مقاليد الامور لانصارها من الاعاجم الذين لم يلبثوا الا جيلاً أو بعض جيل حتى توثبوا على الخلافة وتشاطر زعمائهم ملك العباسيين العريض فأعادوا سيرة الاشراف الاولى لاقبح ما كانت عليه من قبل في سوء الاحدوث والايغال في الظلم وبسط يد القهر والاستبداد على الناس وسنلم بشيء من هذا البحث فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

❦ وقائع الفادسية ❦

دعا رستم قومه الى مسالمة المسلمين بمد كلام طويل جرى بينه وبين المغيرة فأبوا عليه وأراد سعد أن يباشر الحرب انذاراً للقوم آخر مرة فأرسل ثلاثة من ذوي الرأي الى رستم يدعونه وقومه الى الاسلام : فقالوا له ان أميرنا يدعوك الى ما هو خير لنا ولك ، والعافية أن تقبل

مادعاك اليه ونرجع الى أرضنا وترجع الى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عوناً لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يدك وليس بيننا وبين ان تغبط بهذا الامر إلا ان تدخل فيه

هذه كانت آخر دعواهم له ان يقبل الاسلام ويحتفظ بدولته ولملكه ومملكه ويبقى في أرضه ويرجعون الى أرضهم وسلطان الفرس لهم وعاليهم لا يضارون في ملكهم ولا يمس جانب سلطانهم ولهم من ذلك الحماية والدفع من المسلمين . ان هذا لغاية الانصاف ومنتهى السعادة لقوم انغمسوا في حمأة الوثنية واستناموا لزعماء الجور . لكن رستم رفض هذه الدعوة وغمط هذه النعمة مجاراةً لزعماء الامة وقادة الجيش ودهاقين البلاد فرد الرسل كما جاءوا أول مرة وأنذر المسلمين بالحرب وهو في باطن الامر لا يريد لها ولم يتقدم لها إلا مكرهاً عليها علماً بمصير قومه بعدها فأمر قومه بعبور النهر بعد أن سأل سعداً : أتعبر الينا أم نبر اليك ؟ فأجابه أن اعبر وأرسل سعد الى المسلمين أن يقفوا مواقفهم يأخذوا للمصاف أهبتهم ففعلوا وعبر اليهم الفرس من العتيق وجبل رستم بينه وبين يزدجرد يريد ان ينقل الخبر بالصوت أي وضع رجالاً في مواقف يقرب بعضها من بعض بحيث اذا نادى الواحد يسمعه الآخر فيصل الخبر الى يزدجرد في أقرب وقت كان بسعد يومئذ مرض عرق النساء وقروح في أليتيه لا يستطيع الركوب فبقي على سطح القصر وهو مكب على وجهه في صدره وسادة يشرف على الناس والصف في أصل حائطه فعابه بعض الناس بذلك وذكره في شعره وقال :

فقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد باب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم
فبلغت آياته سعداً فقال اللهم ان كان هذا كاذباً وقال الذي قال رياء
وسمعة فاقطع عني لسانه ثم نزل الى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه
وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة ودعا بناس من
ذوي الرأي والنجدة منهم المنيرة بن شعبة وطيحة الأسدي وعمر بن
معد يكرب وأمثالهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وأمر سعد
الناس بقراءة سورة الانفال فلما قرأت هشت قلوب الناس وعيونهم
وعرفوا السكينة مع قرأتها فلما فرغ القراء منها قال سعد : الزموا مواقفكم
حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا
سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط
فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم : فلما
كبر سعد الثالثة خرج اهل النجدات فانشبوا القتال ودارت رحى الحرب
واعتور الطمن والضرب وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلاً
فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيائها . وأرسل سعد الى بني
أسد ورثيسهم طليحة ان دافوا عن بجيلة فخرج طليحة بن خويلد في كتابها
فباشروا الفيلة وقام الاشعث بن قيس في بني كندة فحرضهم على القتال
فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم
وفيههم ذوالحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من
سعد واجتمعت حلبة فارس على أسد فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف
اليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد وحملت الفيول على الميمنة

والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها فأرسل سعد الى عاصم بن عمرو التميمي ان يكفيه وقومه شر الفيلة فتقدم عاصم بجماة من شجعان قومه ورماتهم فمقطعوا وضمن الفيلة فموت وفرت برجالها ونفس عن أسد فردوا جنود فارس عنهم الى موافقهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هداة من الليل ثم رجع الفريقان وقد أبلى بنو أسد في ذلك اليوم - وهو يوم أرمات - بلاء عظيمًا

لما أصبح القوم في اليوم الثاني - وهو يوم اغواث - وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم واما القتلى فدفنوا هنالك وبنما هم يدفنون القتلى طلعت نواصي الخيل من الشام ومعهم القمعاق بن عمرو الذي قال عنه أبو بكر : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا : وقد كان عمر كتب الى ابي عبيدة بارسال أهل العراق الى العراق كما تقدم في سيرته فارسلهم وعليهم - هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بن أخي سعد ويمرف بالمرقال وكان القمعاق على مقدمته فتعجل فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم اغواث فعهد الى أصحابه وهم الف ان يتقطعوا أعشاراً كل ما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة . ولما وصل سلم على الناس وبشرهم بالمدد وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما اصنع ثم خرج وهو ينادي بالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وطلب البراز فبرز اليه ذو الحاجب فتجاولا ساعة ثم قتله القمعاق ثم خرج المبنذوان والفيروزان فانضم الى القمعاق الحارث بن ظبيان أحد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القمعاق الفيروزان وقتل الحارث المبنذوان ثم ما زال يتبارز الاقران حتى انتصف النهار فتزاحف الفريقان واقتتلوا حتى انتصف الليل

ثم أصبحوا يوم عماس وهو اليوم الثالث وهم على مواقفهم فكان من حسن مكاييد القعقاع أن بات تلك الليلة يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقه فيه وقال إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان أقبل هاشم (يعني ببقية الجيش الآتي من الشام) فذاك وإلا جددتم للناس رجاءً وجداً وأصبحوا على مواقفهم فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبر وكبر المسلمون وتقدموا وتكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فأخبر بما صنع القعقاع فمبى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس ابن هبيرة بن عبد يوث المعروف بقيس بن مكشوح فانتدب مع هاشم حتى إذا خالط الناس كبر وكبر المسلمون ثم حمل على المشركين حتى خرق صفهم إلى العتيق وكان الفرس باتوا يعملون توأيتهم ويعدون فيلتهم وأقبلت الرجلة تحميها أن تقطع وضنها فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأن الخيل استأنست بالرجال المطيفين بها وكان يوم عماس شديداً على العرب والفرس وقاتل فيه القعقاع وعمرو بن معد يكرب وهاشم وقيس بن مكشوح وعاصم بن عمرو وأضربهم من أنجاد المسلمين قتالاً شديداً وانتدب عمرو والقعقاع للفيلة فشردوها وما زال القتال دائرة رحاه حتى أمسوا فلما أمسى الناس اشتد القتال وكانت أيلة (الحرير وكان الفرس لا يريدون غير الزحف فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير إذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع وقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له أن لم يستأذني : ثم إن سعداً واعد المسلمين ثلاث تكبيرات ليزحفوا جميعهم فلما كبر الأولى تقدمت أسد ولقد درأسد على حسن بلائها في هذه الحرب فقال :

اللهم اغفرها لهم وانصرهم : ثم حملت النخع ثم بجيلة ثم كندة ثم زحف
الرؤساء ورجى الحرب تدور على القعقاع وتقدم حنظلة بن الربيع وأمرأ
الاعشار وطليحة وغالب وجمال وأهل النجدات ولما كبر سعد الثالثة تلاحق
الناس بعضهم ببعض وخالطوا جنود الفرس واستقبلوا الليل استقبالا بعد
ماصلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم الى الصباح
وأفرغ الله الصبر عليهم افراغاً وبات سعد بايلة لم يبت بمثلها ورأى العرب
والعجم أمراً لم يروا مثله قط . فلما كان عند الصبح انتهى الناس (أي
انتسبوا) فاستدل سعد بذلك على أنهم الاعلون وأن المسلمين هم الظافرون
وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :
نحن قتلنا مشراً وزائداً أربعة وخمسة وواحداً
نحسب فوق اللبد الاسودا حتى اذا ماتوا دعوت جاهداً
الله ربي واحترزت عامداً

وأصبح الناس من تلك الليلة التي تسحى ليلية الهرير وهم حسرى لم
ينمضوا أجفانهم فسار القعقاع في الناس فقال ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ
القوم فاصبروا ساعة واحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من
الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه فلما رأت ذلك القبائل قام
فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجسد في أمر الله منكم ولا هؤلاء
(يعنون الفرس) أجراً على الموت منكم فحملوا فيما يليهم واقتتلوا حتى قام
قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرزان فتأخرا وثبتا حيث
نهيا وانفرج القلب وركب عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة
رستم فهوت في العتيق وانتهى القعقاع ومن معه الى السيرير وقد قام عنه

رستم وجاء هلال بن علقمة فضرب رستم فقتله ونادى اليّ اليّ قتل
رستم فأطاف به الناس وانهمزم قلب الفرس فقام الجالينوس على الردم
ونادى الفرس الى العبور وأماً لمقتنون بالسلاسل فهافتوا كلهم في العتيق
وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كايان وهو العلم الاكبر الذي كان للفرس
(مر خبره في سيرة أبي بكر) فعوض منه ثلاثين ألفاً ونفل سعد سلب
رستم لقاتله هلال

كانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التي دونها التاريخ وقتل
فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة وأما من قتل من الفرس فعدد
كبير بالغ فيه المؤرخون وانتهت هذه الوقائع بكسر شرّة الفرس وقتل حدهم
وتشتت جندهم ودخل الوهن على نفوسهم كما كان ذلك مع الروم في رقعة
اليرموك . والغريب في هذا ان عدة المسلمين كانت ضعيفة لا تشا كل
عدة الفرس العريقين في المدينة الماهرين في الصناعات لاسيما في الادوات
الحربية حتى لقد روى المؤرخون ان الفرس كانوا يشبهون سهام العرب
بالمغازل فقد روى البلاذري عن أبي رجاء الفارسي عن أبيه عن جده قال:
حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك)
نني مغازل فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالنا أمرنا :

وقد غنم المسلمون في القادسية غنائم كثيرة الله أعلم بمقدارها ولما
جمعت الاسلاب والاموال جمع شيء لم يجمع قبله مثله وأمر سعد القعقاع
وشرحبيل بن السمط باتباع الفارين وخرج زهرة بن الحوية التميمي في
آثارهم في ثلاثمائة فارس ثم أدركه الناس فالحق المنهمزمين والجالينوس
يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وأمعنوا فيمن لحقوه قتلاً وأسراً ورؤي

شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلاً أسرى من الفرس وهو دليل على ما أصاب القرم من الذعر والخوف وما داخلهم من الجبن بعد القادسية التي رأوا فيها من قتل المسلمين ما تشيب له الولدان ويخفق عند ذكره الجنان رأى سعد سلب الجالينوس فاستكثره على زهرة بن الحوية وليس له أن يستكثر عليه مثله في مثل موقفه ذلك فكتب إلى عمر في ذلك فأخذه عمر على استكثاره على زهرة سلب الجالينوس وكتب إليه: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلي (سبق) بمثل ما صلي به وقد بقي عليك من حربك ما بقي تفسد قلبه ؟ أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة: ونعم ما فعل عمر رضي الله عنه فقد أنصف الرجل من جهة ونبه سعداً من جهة ثانية إلى وجوب تألف كبار الناس في مواقف الحروب امتلاكاً لقلوبهم وتقديراً لقدرة خدمتهم

لما رأى جنود الفرس بعد وقعة القادسية مارأوا من ظفر المسلمين وهالهم أمر الاسلام استأمن قسم عظيم منهم على أن يكونوا من جند المسلمين وكان مع رستم أربعة آلاف جندي يسمون جندشمانشاه (ولعلمهم من الحرس الملكي) استأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء ما أعطوا الذي سألوه وحالفوا زهرة بن حوية السعدي التميمي وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف: نقل هذه الرواية البلاذري في فتوح البلدان وهي إذا صحت تدل على جواز استخدام الذمي في الجند الاسلامي إذا طلب ذلك ولا يعترض هنا أن الفرس من المجوس وهم غير أهل الذمة من الكتابيين فإن عمر كان يعامل المجوس معاملة أهل الذمة من حيث الجزية وغيرها فقد روى البلاذري أيضاً عن جعفر

ابن محمد عن أبيه قال كان لاهاجرين مجلس في المسجد «المشاورة» فكان عمر يجلس معهم ويحدثهم عن ما ينتهي اليه من أمر الآفاق « يستشيرهم في الامور » : فقال يوماً ما ادري كيف أصنع بالمجوس فوثب عبد الرحمن ابن عوف فقال : أشهد على رسول الله (ص) انه قال « سنوا بهم (أي بالمجوس) سنة أهل الكتاب »

ومن هذا الحديث نعلم ان المجوس في المعاملة الشرعية كأهل الكتاب لهذا عامهم عمر رضي الله عنه معاملة أهل الكتاب

﴿ فتح المدائن ﴾

عاصمة الاكاسرة

ان وقعة القادسية كانت كما ذكرنا مقدمة لتوهين قوة الفرس وتجهيداً للوصول الى عاصمة الاكاسرة التي كانت أم البلاد القادسية ومعقل الاسرة الكسروية لهذا كان ما كان من سعد في القادسية من طول التآني والتريث في أمر الحرب وأخذ العدة ومطاوله العدو حتى أضجر رستم من طول المكث وجعله يهاجم جيش المسلمين مهاجمة اليأس من الظفر بعد ان رأى ما رأى من ثبات العرب ووزاتهم وحسن قيام رؤسائهم على أمور الحرب : ولما انتهى أمر القادسية الى ما انتهى اليه أقام سعد بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن وان يخفف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جنداً كشيفاً وان يشركهم في كل منم ما داموا يخفون المسلمين في عيالاتهم : ففعل ذلك وسار من القادسية لايام بقين من شوال سنة خمس عشرة وقدم امامه عبد الله بن المعتّم

وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط فلقبهم في برس جمع من الفرس
فهزمهم المسلمون ففروا الى بابل وفيها قالة القادسية ولما هزموا اقبل بسطام
دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل
فارسل زهرة الى سعد يعرفه الخبر فقدم عليه سعد ببرس وسيره في المقدمة
واتبعه عبد الله وشرحبيل وهاشما المرقال بن أخيه واتبعه هو ببقية الجيش
فنزّلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزمهم المسلمون وكان فيهم عدة من
القواد الكبار منهم النخير خان والهرمزان ومهران فانطلق هؤلاء القواد
كل الى جهة فأخذها ورحل سعد وعلى مقدمته زهرة فالتقوا بجمع من
الفرس في كوثي فهزموهم ثم ارتحلوا الى بهرشير وهي المدائن الغربية فلما
وصلها المسلمون ورأوا الايوان قال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض
كسرى . هذا ما وعد الله ورسوله : وكبر وكبر الناس معه فكانوا كلما
وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة وكان نزولهم عليها في ذي
الحجة سنة خمس عشرة وانما كانوا يكبرون لتحقيق وعد رسول الله لهم
بملك كسرى : والذي أخذ بأفئدة العرب فاستكانوا للدعوة واخلصوا
للاسلام النية وتفاؤوا في سبيل نشر الدين ورفع رايته على صروح الممالك
انما هو تحقيق وعد النبي (ص) لهم بمصير ملك فارس والروم اليهم حتى
ان هذا الامر كان من أعظم البوائت على اخلاص كثير من المنافقين
وحسن اسلامهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانوا من
اعوان الاسلام وقادة الفتح بعد : ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين
نزل المسلمون على بهرشير وهي على شاطئ دجلة الغربي وحاصروها نحو
شهرين وهم يرمون العدو بالمجانيق ويدبون اليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل

عدة ونصبوا على المدينة عشرين منجنيقا حتى ضيقوا على أهلها الحصار وباتوا في مننك شديد فأكلوا الكلاب والسنانير وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم وبالنهية غادروا المدينة وقطعوا الى المدينة الثانية فاخذها سعد وانزل المسلمين منازلها وكان فتحها في صفر سنة ست عشرة

أقام سعد في بهرشير اياما من صفر وهو يفكر في كيفية العبور الى المدينة الثانية التي فيها ابوان كسرى فأتاه عاج فدلّه على مخاضة تخاض الى صلب الفرس فأبى وتردد عن ذلك لان النهر كان كثير المد يومئذ ودجلة تقذف بالزبد فجاءه آخر وحرصه على العبور وقال ان بقيت ثلاثة أيام فان يزدجرد يذهب بكل شيء في المدائن فهبجه ذلك على العبور فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

انّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه ويخلصون اليكم اذا شاؤا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شيء تخافون ان تؤتوا منه . وقد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم . وقد رأيت من الرأي ان تجاهدوا العدو وقبل ان تحصدكم الدنيا . ألا اني قد عزمت على قطع هذا النهر اليهم :

فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل : فندب الناس الى العبور وقال : من يبدأ ويحجى لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعهم من العبور ؟ فالتدب عاصم بن عمرو ذو البأس في ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصما فقدمهم عاصم بستين فارسا على الخيل الذكور والاناث ليكون أساسا لسياحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رأهم الفرس وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها فاقتحموا عليهم دجلة

فلنوا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم : الرماح الرماح اشرعوها وتوخوا العيون : فالتقوا فاطمّنوا وتوخى المسلمون عيونهم فولوا فلحقهم المسلمون وتلاحق الستمائة بالسنتين غير متعبين ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها . أذن للناس بالافتحام وتلاحق الناس في دجلة حتى اذا بلغوا الضفة الثانية ورأى الفرس ذلك ولوا هاربين : وكان يزدجرد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف جماعة على بيت المال من خواص أصحابه فخرجوا بما قدروا عليه وتركوا من المتاع والآنية والالطاف شيئاً كثيراً مع ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم وذكر المؤرخون عما وجد في بيت المال مقدارا فيه من الغلو والمبالغة ما يرفضه العقل وهو ثلاثة آلاف الف الف الف وقد نقل هذا العدد ابن الاثير عن الطبري والطبري أعقل من ان لا يحكمّ العقل في ايراد مثل هذا العدد وانما هو من تحريف النساخ أو من حشو بعض أغبياء الناس اذ وجود ثلاثة آلاف ألف أي ثلاثة آلاف مليون بلا تكرير ثلاثة مرات أمر يستبعد العقل فكيف به لو كرر وقد رأينا كثيراً من أمثال هذه الروايات الكاذبة في التاريخ وانما يظهر كذبها بقليل من التبصر والامعان ومعظمها ناشئ عن التحريف في النقل والمسح في النسخ

لما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا بها أحداً الا حامية القصر الابيض وهؤلاء استأمنوا في الحال ودخل سعد الايوان واتخذ فيه مصلى للمسلمين ولم يغير ما فيه من التماثيل وانه ليصلي بالناس والتماثيل قائمة فيه : وقرأ سعد يوم دخوله الايوان « كم تركوا من جنات وعيون وزرع » الآية
وجمع سعد من الغنائم ما يفوق الحصر ومنها ذخائر كسرى وسلاحه

وناهيك بذخائر الكاسرة . وقسم النبي على الجند فأصاب الفارس اثني عشر ألفاً وكان كلهم فارس ليس فيهم راجل وبعث بالانحسار الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده فلما رآها قال : ان قوماً أدوا هذا لذوو أمانة : فقال له علي رضي الله عنه انك عفت عفت الرعية

ولا جرم فانه مع اقبال هذه الدنيا العريضة على المسلمين يومئذ وماتلاء أيديهم بالغنائم وصيرورة كنوز فارس اليهم كانوا على جانب من عزة النفس والامانة والتعفف قل ما صدر عن جيش من جيوش الفاتحين وخذ لك مثلاً على ذلك ان رجلاً من المسلمين أقبل يومئذ بمحق (علبة) الى صاحب الاقباض فقال ومن معه : ما رأينا مثل هذا ما يعدله (يمائله) عندنا ولا ما يقاربه : فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به : فقالوا من أنت ؟ فقال والله لا أخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بشوابه : فأتبعوه رجلاً فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد : والله ان الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر ، لقد تتبععت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء :

وقال جابر بن عبد الله : والذي لا إله إلا هو ما اطمعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة . فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فمأثنا كآماتهم وزهدهم وهم طليحة وعمر بن معديكرب وقيس بن المكشوح الى هذا الحد بلغت العفة والامانة من المسلمين يومئذ وانما كان الباعث لهم على ذلك أمور منها جودة الدين والاخلاص لله في الجهاد ، ومنها القناعة بكل ما حصل واعتباره أنه نعمة عظيمة بالنسبة لما كانوا عليه

قبل الاسلام من شظف العيش وضنك الحياة يضاف الى هذا سدا جتهم
القطرية ومعيشتهم البدوية حتى لقد روي ان بعضهم أخذوا الكافور
فظنوه ماحاً وطبخوا به الطوام : وكان بعضهم يستبدل الذهب بزنته فضة
وبالجملة فقد بلغ جيش المسلمين هذا من الامانة والاخلاص وسلامة
القلوب وصدق القول والعمل منتهى المراتب حتى أثنى الناس على جيش
القادسية خير الثناء كما رأيت وقال عمر عنهم : أولئك أعيان العرب :

لما استتم لسعد فتح المدائن واستقر به المقام أرسل في أثر المنهزمين
زهرة بن الحوية الى النهر وانأه أهل النواحي واستأمنوه وصالحوه على
الجزية ولم يدخل في صلحهم ما كان لآل كسرى اذ هذا صار فيئاً للمسلمين
ثم سير جيشاً عليه عبد الله بن المَعْتَم الى الجزيرة ففتح تكرت
والموصل وقد تقدم الخبر عن ذلك في سيرة عمر والخلاف بين المؤرخين
في فتح الموصل هل كان على يد عياض بن غنم لما أرسله عمر لفتح الجزيرة
سنة ١٨ أم كان على يد عبد الله بن المَعْتَم من قبل سعد بن أبي وقاص سنة ١٦
والارجح ان فتح الموصل كان سنة ١٦ من قبل سعد بن أبي وقاص وفتح
عامة الجزيرة كان سنة ١٨ عن يد عياض بن غنم لان عياضاً تولى فتح
الجزيرة بعد وفاة أبي عبيدة وكانت وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ وقد مر الخبر
عن ذلك في سيرة عمر في أخبار فتح الجزيرة فليراجع

وسير سعد جيشاً الى حلوان بقيادة هاشم بن عتبة وعلى مقدمته
القمعاق بن عمرو فكان لهم مع الفرس وقعة جلولاء الشهيرة التي تشبه وقعة
القادسية ثم قصد القمعاق حلوان حيث يقيم كسرى وكان كسرى قد فرّ
منها منذ وصل المنهزمون من وقعة جلولاء فنزلها القمعاق في جند من

الامناء والجرء (أي متطوعة الاعاجم) ونازلها حتى افتتحها وبقي القعقاع فيها الى ان تحول سعد الى الكوفة فلققه القعقاع واستخاف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا . ويظهر من هذا ان المسامين لما توسعوا في الفتح اضطروا بحكم الضرورة الى مشاركة الاعاجم في الامور الحربية والادارية بدليل نزول القعقاع على حلوان بجند من الاعاجم ثم تسليمه ولايتها الى قباذ أيضا . على ان مشاركة الاعاجم في أمور الفتح وتدير شؤون البلاد يرمئ من أحسن ما رمت اليه سياسة المسامين لان القوم يتأسون بمثل هذه المعاملة الجلية فيكونون عوناً للمسامين في تدويج البلاد وتدير أمور السياسة ولعل هذه السياسة الحسنة التي كانت من عمر وقواده في مشاركة الاعاجم كانت من مميزات الفتح وأسباب سرعة انتشار الاسلام ورفع أعلامه في أقاصي البلاد اذ تسامح الفاتح ولايته لاهل البلاد وتخصيصهم بشي من السطة من أعظم الاسباب الممهدة لسبيل الظفر للفتحين أتم سعد بن أبي وقاص (رض) ماعه اليه من فتح المدائن وقل جيش الفرس في القادسية وهدم عرش الدولة القديمة ودوخ عاصمة ملكها العظيم فأنحدرت من شاقق مجدها المتائل فيما بعد الى هاوية الخراب حيث قامت مقامها في تلك الاصقاع بغداد دار الخلافة العباسية ومنبع أشعة التمدن الاسلامي العظيم واذا نظرت الى البلاد رأيته تشقى كما تشقى العباد وتسعد

على ان ما ضمته بغداد تحت جناحي الخلافة الاسلامية من الممالك الشاسعة والامصار النائية لم تضمه المدائن في عهد الدولة الساسانية . والفضل في هذا لسعد وأضرابه من أقبال الصحابة السابقين ورجال خلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين

باب ❧ ❧

❧ تخطيط الكوفة ❧

❧ ومارته عليها ❧

أقام سعد بالمداين بعد الفتح فأضر بالعرب وخامتها وكان أوفد منهم
 بجبر الفتح وفدًا الى عمر فرأى اصفرار وجوههم وتغير ألوانهم فسألهم
 عن السبب فأخبروه انه وخومة البلاد فكاتب الى سعد أن ابعت سلمان
 وحذيفة رائدين فايرتادا منزلا بريًا بحريًا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا
 جسر: فأرسلهما سعد فخرج سلمان حتى أتى الانبار فسار في غربي الفرات
 لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى
 شيئًا حتى أتى الكوفة (وكل رملة وحصباء مختلطتين فهو كوفة) فأعجبتهما
 البقعة فنزلا فيها فصليا ودعوا ان تكون منزل ثبات ورجعا الى سعد بالخبر
 فكاتب سعد الى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم ان يستخلفا على
 جنديهما ويحضرا عنده فارتحل حتى نزل الكوفة في المحرم سنة (١٧ هـ)
 وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهر وقيل أكثر فلما نزلها
 كتب الى عمر ، فكاتب اليه بالبناء على الوجه الذي تقدم في سيرة عمر
 (رض) وأقام سعد واليا على الكوفة وتوابعها نحو ثلاث سنين ونصف وكان
 حسن الامارة كثير التبعية لاحوال الرعية منصفًا بين المسلمين شديدًا على
 المعتدين : وكان عمر لا يفتأ يسأل عن سيرته كما هو دأبه مع جميع العمال
 فوفد عليه مرة عمرو بن معديكرب الزبيدي فسأله عنه فقال : متواضع في
 خبائه ، عربي في نمرة ، أسد في تاموره ، (عريته) يعدل في القضية ، ويقسم

بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويمطف علينا عطف الام البرة وينقل الينا
حقنا نقل الذرة .

الا أن أهل الكوفة لما أخذوا الى الراحة وأخذ يتولد فيهم الفساد
ويظهر التحزب وجعلوا يأنفون من سيادة قريش لادلالهم بالفتح وطول
معاناتهم للحرب مع الفرس وغيرهم سعى قوم منهم بسعد بن أبي وقاص
وألّبوا عليه وكان أكثرهم من بني أسد وكان ممن تحرك في أمره الجراح
ابن سنان الاسدي . وكان مما عابوه عليه انه لا يحسن الصلاة . فبعث عمر
محمد بن مسامة والناس في الاستعداد للفرس في نهوند فسأل عن سيرته
في الكوفة فكلمهم قال خيراً سوى من مالا الجراح فانهم سكتوا ولم
يقولوا سواً ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بني عبس فسألهم فقال أسامة بن
قتادة : اللهم انه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، ولا يغزو في
السرية : فقال سعد : اللهم ان كان قائلها ريةً وكذباً وسمعة فأعم بصره
وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن : فاصابته دعوة سعد . ثم دعا سعد
على اولئك النفر فأصيبوا وأصيب الجراح اذ قطع بالسيوف يوم بادر
الحسن بن علي رضي الله عنه لينتاله بساباط

وخرج محمد بسعد وبهم معه الى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه
الخبر : فقال كيف تهلي ياسعد : قال اطليل الاوليين وأخفف الاخرين :
فقال هكذا الظن بك يا أبا اسحق : ثم ان عمر دفعاً للفتنة في وقت يريد به
تجهيز الجيوش لهاوند حيث يعد الفرس العدة العظيمة لحرب المسلمين عزل
سعد وولى مكانه خليفته على الكوفة وهو عبد الله بن عبد الله بن عتبان :
وأراد عمر على الامارة مرة ثانية فأبى وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون

اني لا أحسن أصلي : ولما طعن عمر أوصي الخليفة بعده أن يؤمر سعداً فأعاده عثمان رضي الله عنه الى الكوفة ثم عزله لانه اقترض من عبد الله ابن مسعود من بيت المال قرصاً وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالبيع ورفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود . فقال له : ويحك قل خيراً ولا تلعن : وبلغ عثمان الخبر فعزله عن الكوفة فاعتزل في منزله في العقيق قرب المدينة : وقد منا ان عمر رضي الله عنه كان يصادر عماله فلما كان سعد أميراً من قبله على الكوفة شاطره ماله فقال له سعد لقد هجمت قال عمر : بأن تدعو على ؟ قال : نعم قال : اذا لا تجدني بدعاء ربي شقياً

— باب —

﴿ نبذة من أخباره ﴾

﴿ واعتزله الفتنة ﴾

(صدقه في الحديث) كان سعد رضي الله عنه صادق الحديث . صادق الرواية لما فطار عليه من صدق الالهجة وقول الحق : روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه مسح على الخفين وان عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : اذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل عنه غيره : وفي رواية : فلا تبغني وراء حديثه شيئاً .

وقد بلغ به الحرص على صدق الحديث ان كان يضن بالرواية خوف التحريف ونقل ما لم يقل ففي رواية ابن عساكر عن السائب بن يزيد : قال خرجت مع سعد الى مكة فمأسمته يحدث حديثاً عن رسول الله (ص)

حتى رجعنا الى المدينة : وروي عن عائشة بنت سعد قالت سئل سعد عن شيء فاستعجم فقل له في ذلك فقال اني أكره ان أحدثكم حديثاً فتجعلوه مائة حديث :

ومن البديهي ان سعداً ما قال هذا القول إلا لانه يخاف كما كان يخاف كبار الصحابة ومنهم عمر وأبو عبيدة من كثرة الرواية وتحريف النقل ووضع الحديث ومن علم بما حدث من الوضع لاسيما في أيام الفتن العظمى التي نازتها بين المسلمين عذر هؤلاء الصحابة وأشباههم على تجنب رواية الحديث والذهي عنه إلا ما تعلق منه بالاحكام وحسب الامة ما أصابها من البلاء وتفريق الكلمة مما وضعه يومئذ الشيعة وأعداؤهم من الاحاديث التي يريد بها كل فريق تأييد دعواه وتميز جانبيه ولو لم يكن من البلاء إلا ما دخل في نفوس العامة ووفر في آذانهم من أخبار المهدي المنتظر لكفى ذلك وهناً على الامة وهونا لها لترك عامتها التذرع بالاسباب عند حلول كل حادث جلل اعتماداً على ظهور ذلك المنتظر وطالما تظاهروا أناس بهذه الدعوى الباطلة وغشوا العامة بأكاذيبهم المفتراة ولم ينشأ عن دعواهم من دفع البلاء الذي يرجوه العامة إلا زيادة في البلاء وسفكاً للدماء وتفريقاً بين الامة وتشتيئاً للكلمة ومع هذا فليس ثمة من يعتبر بكذب تلك الاخبار المفتراة ويزدجر عن غي النفس واضلال العقل وغش الضمير : وماذا عسانا نقول عن واضعي أمثال تلك الاخبار . وما أصاب الامة من جرائمها شاهد عدل يشهد بانهم لم يريدوا بها للاسلام خيراً . ومن كان هذا شأنه فأحرى به ان لا يحرص مع المؤمنين . ولنا كلام على أحاديث المهدي وما جرت من المصائب على الامة نرجئه لحل آخر وكلام أعم منه يحول

في الضمير ويحجم عنه اللسان أدباً مع أسلافنا الغابرين وتفادياً من تهجم الجاهلين

(ومن محاسن أقواله) ما رواه ابن عساكر عن المدائني قال: قال سعد لابنه: إذا طلبت الغنا فاطلبه بالفناعة فإنه من لم يكن له قناعة لم يغه مال: (ومن جميل خلق سعد) ما رواه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال: كان بين سعد وخالد بن الوليد كلام فذهب رجل يقع في خلد عند سعد فقال: مه ان ما بيننا لم يبلغ ديننا:

وما أخلق بأهل الفضيلة وأرباب العقل والدين الختم على أفواه النمامين والاختذ على أيدي المغتابين كما صنع سعد رضي الله عنه إذ ليس أفسد للتلوب رافصم لعري التآلف وأدعى لبث روح البغضاء بين الأفراد من الغيبة والتميمة ، وشر الناس الذين هم شرٌّ على المجتمعات النمامون المغتابون الساعون بالتفريق الدائون على الوشاية. ومن أراد ان يعلم مصير الاقوام الذين يتنشى بينهم هذا الداء العضال والمرض القاتل مرض الوشاية فليطاق نظر المتأمل على ما أصاب بعض الممالك الاسلامية ليرى من تباغض الافراد وتناكر القلوب وتداعي أركان العمران وهدم بيوت المجد وتقويض أسس السعادة القومية والآخاء الجنسي والديني مالا دليل على سوء مغبة التهمة أعظم منه

واعلم انه وان كان أكثر ما يؤثر على حياة الأمم ويهت على زوال الدول هو فساد الاخلاق عامة إلا أن لفعل هذا الخلق «أي خلق التهمة والسعاية» خاصة أثراً قبيحاً في الوجود يربو على كل أثر من آثار فساد

الاخلاق وفقد التربية لانه اذا فشا في قوم فأكثر ما ينزع اليه الامراء
توصلا بزعمهم الى اكتناه كنه القلوب ووقوفاً على ضمائر الرعية وهيئات
ان يجدوا وسيطاً لتقل أخبار الناس اليهم الا من انغمس في حمأة الشر
واطرح رداء الحياء وغاب عليه حب الشهوة وفقد المروءة وتجرد عن
الفضيلة فيسمى في التفريق بين الامير والامور والحاكم والمحكوم لزانى
يريدها ودناءة يتوخاها وفي هذا من المضرّة ما لا يخفى على أعمى فضلاً عن
البصير اذ كلمة سوء واحدة تنقّي لسلطان جائر مثلاً تسكفي لهدم ملك كبير،
واستشراء شر عظيم، وقيام فتن عمياء، تضطرب لها الدهاء، كما سيمر
عليك مفصلاً في محله من هذا الكتاب ان شاء الله

(ومن أخباره في القادسية) ما رواه صاحب الاغانى ان عمر بن الخطاب
كتب اليه أن فض ما زاد من أموال الغنائم على حيلة القرآن فاتاه عمرو بن
معديكرب فقال له : ما معك من كتاب الله تعالى ، فقال اني أسلمت باليمن
ثم غزوت فشنغت عن حفظ القرآن : قال مالك في هذا المال نصيب :
وأنا بشر بن ربيعة الخثعمي فقال : ما معك من كتاب الله ؟ قل بسم الله
الرحمن الرحيم . فضحك القوم منه ولم يعطه شيئاً فقال عمرو في ذلك :

إذا فُتّنا ولا يبكي لنا أحدٌ قالت قريش ألا تلك المقاديرُ
نعطى السوبة من طعن له نفذٌ ولا سوبة إذا تعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أنحتُ بباب القادسية ناقتي وسعدُ بن رُقاص عليّ أميرُ
وسعد أمير شرّه دون خيرهِ وخير أمير بالعراق جريرُ
وعند أمير المؤمنين نوافل وعند المثنى فضة وحريرُ

تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قُدَيْسٍ والمكر عسير
 عشية ودَّ القوم لو أن بعضهم يمار جناحي طائر فيطير
 اذا ما فرغنا من قراع كتيبة دلفنا لاخرى كالجبال تسير
 ترى القوم فيها أجمعين كأنهم جمال بأحمال لمن زفير
 فكتب سعد الى عمر رضي الله عنه بما قال لهما وما ردّا عليه
 وبالقصيدتين فكتب اليه ان أعطهما على بلائهما . فاعطى كل واحد منهما
 ألفي درهم

﴿ اعتزاله الفتنة ﴾

نريد بالفتنة فتنة عثمان وعلي وطليحة ومعاوية والزبير التي تحزب فيها
 المسلمون احزابا كل حزب بما لديهم فرحون وهي الفتنة التي يقف دونها
 عقل الحكيم حائرا بين الاقدام على خوض عباها واستكنها كنه خباياها
 وبين الاحجام عنها والقاء اخبارها على علائها وغض الطرف عما انطوى في
 ثناياها . لالانها أول بادرة بدرت في الملك وفتنة ظهرت في الدول كلاً
 ان قيام الدول واستصفاء الملك انما يتم بوجود احزاب ينصرون للنزاع
 الى الملك واعوان يتبعون القوة أو يناضلون عن صاحب الحق في كل قوم
 وعصر . وانما صبغ الساف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث
 بين اقدام واحجام مع انها فتنة سياسية تابعة لجرى السنن الطبيعية في
 الدول اذ ما دامت شؤون البشر لاتستقيم الا بالوازع والمجتمعات لا تقوم
 الا بحاكم يدبر أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها بالخلاف على رئاسة
 الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين اليه القادرين عليه

في كل أمة وجيل وتنازع البقاء في الملك أمر طبيعي كما هو في كل الاشياء كما سنفيض في هذا البحث عند الكلام على هذه الفتنة وانما اجتزاناعنه بهذه المقدمة تمهيداً لما سيدتلوه من الكلام في غير هذا المحل ان شاء الله رأى سعد بن أبي وقاص ان الامة انقسمت في أمر الخلافة الى أحزاب كل حزب يرى ان صاحبه على حق ، وانه بالخلافة أحق ، وان الامر لا ينقضي إلا بالمعالبة بين النفر المتطلمين الى الخلافة وهذا يجر الى سفك الدماء وامتداد شواظ الحرب وان فتنة هذا شأنها فالغالب والمغلوب ملوم فيها وليس في طوقه رتق فتق فتقه الطموح الى الخلافة وسد ثلثة اندفع منها تيار الامة فلم يسعه إلا اعتزال الفتنة والبعد عن مواقف الحرب حتى يجلي الغبار وتنتهي الامور الى حدها ، ويود السيف الى غمده ، فاعتزل خارج المدينة وأمر أن لا يخبروه بشئ حتى يجتمع الناس على امام واعلم ان سعداً من الحقيقين بالخلافة وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد اليهم عمر وقد كان له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأبأها لاعتن ضعف بل عن حب للسلامة وتجنب للانغماس في الدماء بذلك عليه ان ابنه عمر وابن أخيه هاشم أرادا ان يدعوا الى نفسه وقال له ابن أخيه ان مائة ألف سيف تريده على الخلافة فأبى

روى ابن عساكر عن بعض أهل العلم ان هاشم قال له : ان ههنا مائة ألف سيف يرونك انك أحق الناس بهذا الامر : فقال أزيد من مائة ألف سيف سيفاً واحداً اذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئاً واذا ضربت به الكافر قطع : فانصرف من عنده الى علي بن أبي طالب فكان في أصحابه وقاتل معه

وروى عن المطلب عن عمر بن سعد انه جاءه ابنه عامر (يدعوه لطلب الخلافة) فقال : أي بني أفي الفتنة تأمرني ان أكون رأساً لا والله حتى أعطي سيفاً ان ضربت به مسلماً نبأ عنه وان ضربت به كافراً قتله وانما يريد بهذا انه يعلم ان المتقاتلين جميعهم من أهل الاسلام وان له من صدق ايمان الجميع الظاهر وليس له ان يعلم السرائر ليقاتل الباغي بسيفه فاذا قتله فلا يأثم ولا يلام

ولما اشتد الامر على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعانى من شيعته ما عاناه من أعدائه قام على منبر الكوفة فقال : قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فعصيتهموني : فقام اليه فتى آدم فقال : انك والله ما نهيتنا ولكنك أمرتنا فدمرتنا فلما كان منها ما تكره برأت نفسك ونحلتنا ذنبك فقل علي . وما أنت ومذا قبحك الله والله لقد كانت الجماعة فكنت بها جاهلاً فلما ظهرت الفتنة نجحت فيها نجوم قرن الماعز : ثم التفت الى الناس فقال يغبط سعداً وعبد الله بن عمر على اعتزالهما الفتنة : لله منزل نزله سعد وابن عمر اثنى كان ذنباً انه لصغير مغفور ، وان كان حسناً انه لعظيم مشكور ، (أخرجه ابن عساكر)

وأما معاوية فقد طمع في اعتزاله واعتزال ابن عمر ومحمد بن مسلمة وكاتبهم يستميلهم للقتال معه فأجابه بالرفض ، وكان كتب الى سعد بن أبي وقاص ما صورته :

سلام عليك أما بعد فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ونصره طاحنة والزبير وهما شريكك في الامر ونظيرك في الاسلام وخفت لذلك أم المؤمنين

فلا تكره ما رضوا ولا ترد ما قبلوا وانما نريد ان نردها شوري بين المسلمين والسلام :

فأجابه سعد بما صورته :

أما بعد فإنَّ عمر لم يدخل في الشورى الا من تحمل له الخلافه فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه الا باجتماعنا عليه غير انَّ علياً كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو باقضى اليمين . وهذا الامر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره . وأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما لكان خيرا لهما . والله يغفر لام المؤمنين ما أتت : وفي هذا الجواب من اعتدال اللهجة وعدم مساس جانب أحد من المتقاتلين ما يعرف منه ابتعاده عن سوء الظن بأحد منهم وتبرأه بتاتا من أمرهم . وروي انه كتب اليه أبيات شعر ولعلها كانت جوابا لكتاب آخر كتبه اليه وهي

معاوي دواؤك الداء العياء وليس لما تجيء به دواء
أيدعوني أبو حسن نلي فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له اعطني سيفاً بصيراً تميز به العداوة والولاء
أتطمع في الذي أعيا علياً على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خيرٌ منك حيّاً وميتاً أنت للمرء الفداء

ويؤخذ من هذه الايات ان قلب سعد كان مع علي رضي الله عنهما لكنه رأى الحياء أسلم فلزمه واعتزل بحيث لا يكون له ولا عليه وقد عظم عليه قتل عثمان رضي الله عنهما واشتد عليه أمر هذه الفتنة لهذا قال : ما بكيت من الدهر الا ثلاثة أيام يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويوم قتل عثمان . واليوم ابكي على الحق فعلى الحق السلام : رواه ابن عساكر

ولما استتبت الخلافة لمعاوية جاء سعد بن أبي وقاص فدخل على معاوية فقال له أين كنت في هذا الامر؟ فقال: انما مثلنا ومثلكم كمثل ركب كانوا يسرون فاصابتهم ظلمة فقالوا: أخ أخ: فقال معاوية ما في كتاب الله: أخ أخ: ولكن في كتاب الله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأضلّوا بينهما فان بقت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي الى أمر الله » فبايعه سعد وما سألته شيئاً الا أعطاه (أخرجه ابن عساكر) عن حفص وأخرجه من طريق آخر بمعنى آخر وربما جاء معنا في غير هذا المحل ان شاء الله

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر له قال له: السلام عليك أيها الملك: فضحك معاوية وقال ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت: يا أمير المؤمنين؟ فقال: أتقولها جزلان ضاحكا والله ما أحب اني وليتها بما وليتها به: يريد انه ولها بالسيف لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا فقال له « أيها الملك » استخفافا بشأن الملك وتعظيماً للخلافة التي ذهبت مع الراشدين رضي الله عنهم أجمعين

﴿ باب ﴾

وفاته وصفته وولده

اجمع أهل الاخبار على ان سعدا رضي الله عنه اعتزل بعد الفتنة في منزل له بالعقيق على عشرة أميال من المدينة حتى توفاه الله ولما حضرته الوفاة دعا بخاق جبة له من صوف فقال: كفنوني فيها لاني لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي علي وانما كنت أخبأها لهذا:

ولما مات حمل من العقيق على أعناق الرجال حتى أتى به المسجد
فوضع عند بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بفناء الحجر فصلى عليه مروان
ابن الحكم وكان والياً على المدينة وذلك سنة خمس وخمسين. وكان يوم مات
ابن بضع وسبعين سنة على قول من قال انه أسلم وهو ابن بضع عشرة سنة
وأما على قول من قال انه أسلم ابن بضع وعشرين سنة فقد كان يوم وفاته
ابن ثلاث وثمانين سنة. وهو آخر العشرة الكرام موتاً
وترك سعد ثروة حسنة لانه كان غنياً. قيل انه ترك مائتين وخمسين
الف درهم: وعن بنته عائشة انه أرسل مرة الى مروان بن الحكم بركة عين
ماله خمسة آلاف درهم

﴿ صفته ﴾

قال الواقدي قالت عائشة بنت سعد كان أبي رجلاً قصيراً دحداً
غليظاً ذا هامة شثن الاصابع^(١)

﴿ ولده ﴾

قال ابن قتيبة. ولد سعد عمر: ومحمد: وعامر: وموسى: ومصعب:
وعائشة: وغيرهم: فأما عمر فقتله المختار بن عبيد لانه كان أميراً على الجيش
الذي حارب الحسين بن علي رضي الله عنهما وقتله: وأما محمد فخرج مع
الاشعث بن قيس فقتله الحجاج صبراً: وأما عامر فكان يروي عنه
الحديث ومات سنة أربع ومائة: وأما مصعب فقد مات سنة ثلاث
ومائة وقد روي عنه الحديث: ومن أعقب من أولاده عمر: ومحمد: وموسى

(١) قولها دحداً أي قصيراً وقولها شثن الاصابع أي خشنها

انتهى ما أردنا إيراد من سيرة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
وبنيه عمرو بن العاص وهو آخر من ذكر سيرته من أشهر مشاهير الرجال
في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

— ❦ عمرو بن العاص ❦ —

❦ باب ❦

(حاله في الجاهلية)

— نسبه وأصله —

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو
ابن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي وكنيته
أبو عبد الله وقيل: أبو محمد وأمه النابغة بنت حرملة من بني عترة (وقيل عترة)
وأخوه لأمه عمرو بن أنثة العدوي . وعممة بن نافع بن عبد قيس الفهري :
وسأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال : سألني بنت حرملة تلقب
النابغة من بني عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكة
بن المغيرة . ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان . ثم صارت إلى العاص
بن وائل فولدت له فأنجبت فانجبت فان كان جعل لك شيء نخذه^(١)

❦ صناعته ومكانته في قومه ❦

كان عمرو بن العاص كما ذكرنا في صدر الجزء الاول جزاءً ثم كان
يختلف بالتجارة إلى الشام ومصر ويقال ان سبب توجه فكره لفتح مصر
هو ذهابه مرة إلى الاسكندرية وعلمه بغنى البلاد وثروتها وأما مكانته عند

(١) كان عمرو بن العاص يعير بأمه لأنها كانت سبية لهذا قال للسائل ما قال

قومه فقد كانت عالية لشهرته بالدهاء، والمكيدة حتى عدوه من دهاة العرب في الجاهلية وقالوا ان دهاتهم في الاسلام عمرو بن العاص . والمغيرة ابن شعبة . وقيس بن سعد بن عباد . وأخباره في الدهاء كثيرة ستأتي فيما يلي من سيرته ان شاء الله

— ❦ — باب ❦ —

❦ اسلامه وصحبه ❦

(اسلامه)

تأخر اسلام عمرو بن العاص الى ما قبل فتح مكة بستة أشهر أي سنة ثمان من الهجرة وأما سبب اسلامه فان قريشا أرسلته الى النجاشي في طلب جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة فلم يجب النجاشي طلبه . وقال له يا عمرو ؛ كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله انه لرسول الله حقاً ؛ قال : انت تقول ذلك : قال أي والله فأطمني فخرج من عنده مهاجراً الى انبي صلى الله عليه وسلم : رواه في أسد الغابة : وروى ابن عساكر في تاريخه عن محمد بن حفص التيمي : قال لما كانت الهدنة بين النبي (ص) وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو بن العاص الى النجاشي يكيد أصحاب رسول الله عنده وكانت له منه ناحية فقال له : يا عمرو تكلمني في رجل يأتيه الناموس كما يأتي موسى بن عمران قال : وكذلك هو أيها الملك ؛ قال نعم : قال فأنا أبايعك له . فبايعه له على الاسلام ثم قدم مكة فلقى خالد بن الوليد فقال : ما رأيك قد استقام اليسم والرجل نبي : قال خالد : وأنا أريد (وتذكر ان

خالد بن الوليد (أهبة المهاجرة اليه) قال وأنا معك . قال عثمان بن طلحة وأنا معك : فخرجوا فقدموا على النبي (ص) قال محمد بن سلام قال ابان قال عمرو بن العاص وكنت أسن منهما فقدمتهما لاستدبر أمرهما فبايعا على ان لهما ما تقدم من ذنوبهما . فاضمرت على ان أبايعه على ما تقدم وما تأخر فلما أخذت بيده بايعته على ما تقدم ونسيت ما تأخر

وفي رواية له أيضاً عن الحافظ أبي نعيم ان أصحاب عمرو لما بلغهم اسلامه أخذوه فغموه فآلت منهم مجرداً ليس عليه قشرة فأظهر للنجاشي اسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه :

وبالجملة فان عمرو بن العاص أسلم بعد طول اناة وبعد ان تحققت لديه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وشهد له بها النجاشي وأيدها ما كان يخالج ضميره من النزوع الى الاسلام بعد اذ ظهرت كلمة أصحابه ظهوراً لا يخفى على من له قلب او لقي السمع وهو شهيد : لهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » وقال « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام » رواه ابن عساكر في تاريخه

واعلم انما أبطأ بعمرو واضرابه من قريش عن الاسلام التقليد والاستمسك بالعوائد التي تكاد تكون ملكة في النفوس لا ينزعها الا أحد أمرين اما طول المعالجة والصبر ، واما القوة والقهر ، وهي ملكة من أقبح المالكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفوس فلا تصل اليه الا بعد عناء شديد ، واحجام طويل ، وهذا كان شأن قريش مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما دعاهم الى التوحيد الذي تدرك البداهة ويؤيد العقل والحس انه خير من الشرك وعبادة الاصنام وانما أبطأ بهم عن قبول

الاسلام تسلط العوائد واستحكام ملة التقليد يدلك عليه ما رواه ابن
 عساكر عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمر بن العاص ما أبطأ بك عن
 الاسلام وأنت أنت في عقلك : فقال أنا كنا في قوم لهم علينا تقدم
 وبين توازن حلومهم الجبال ما سلكوا جفأ فتبعناهم الا وجدناه سهلاً فلما
 أنكروا على النبي (ص) أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم فلما
 ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا في امر النبي (ص) وتدبرنا فاذا الامر بين
 فوقع في قايي الاسلام فعرفت قریش ذلك في ابطائي عما كنت أسرع
 فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا اليّ فتى منهم فقال : أبا عبد الله ان القوم
 قد ظنوا بك الميل الى محمد : فقلت له : يا ابن اخي ان كنت تحب ان
 تعلم ما عندي فوعدك الظل من حرا : فالتقينا هناك فقلت اني انشدك
 الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس
 والروم : قال اللهم بك نحن : فملت أفنحن أوسع معاشاً وأعظم ملة أم
 فارس والروم : قال بل فارس والروم : قلت فما ينفعنا فضلنا عليهم في
 الهدى ان لم تكن الا هذه الدنيا وهم فيها أكثر فيها أمراً . قد وقع
 في نفسي ان ما يقول محمد من البعث حق ليجزي المحسن في الآخرة
 باحسانه والمسيء باسائه . هذا يا ابن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في
 النماذي في الباطل : وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه
 قال : قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص : لقد عجبت لك في ذهنك
 وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الا واین : فقال له عمرو وما أعجبتك
 يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستقر التخلص منه الا الى ما أراد الذي
 هو بيده : فقال عمر صدقت :

صحبه

ان عمرو بن العاص وان كان ممن تأخر اسلامهم الا انه كان حسن
 الصحبة محبباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد روي عنه انه قال
 ما عدل بي رسول الله وبخالد ابن الوليد أحداً من أصحابه في حربته منذ
 أسلمت (رواه ابن عساكر) وذلك بلا ريب لثقتهم باسلامهما وكفائتهما
 في أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيم في مصر والشام بعد
 وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر
 وذلك في غزوة ذات السلاسل التي تقدم الخبر عنها في سيرة أبي عبيدة
 لما نازعه ثمة على الامارة . وقد اظهر في هذه الغزوة من الكفاة وحسن
 المكيدة ما حمده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
 روى ابن عساكر عن اسماعيل بن أبي خالد عن عمرو بن العاص ان
 رسول الله بعثه الى ذات السلاسل فسأله أصحابه ان يأذن لهم ان يوقدوا
 النار لئلا يبرد أصحابهم فمنعهم . فكلما أبا بكر ان يكلمه في ذلك فاتاه .
 فقال لابي بكر لا يوقد أحد منهم ناراً الا ألقيته فيها : فاقوا العدو فهزمهم
 فارادوا ان يتبعوهم فمنعهم : فلما انصرف ذلك الجيش الى رسول الله شكوه
 اليه فقال : يا رسول الله اني كرهت ان آذن لهم ان يوقدوا ناراً فيرى عدوهم
 قتلهم : وكرهت ان يتبعوهم فيكون لهم (أي للعدو) مدد فيعطفوا عليهم :
 قال فاحمد رسول الله أمره :

وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم الى عمان واليا على الصدقة وان يدعو
 الناس الى الاسلام فذهب ودعاهم الى الاسلام فأمنوا وكان الذي ساعده
 على ذلك جيفر وعياذ ابنا الجلندي وكان الملك منهما جيفر فاسلمها وخليها

بينه وبين الصدقة فكان يأخذها من الاغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقيماً هناك حتى أتاه نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه كتاب أبي بكر مختوماً وفيه : ان لا يحل عقلاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يعقل عقلاً عقله رسول الله : فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاً ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه . ثم لما اضطربت نار الردة شخص الى المدينة ومرّ منصرفه من عمان بمسامة فدعاه الى أمره وقرأ عليه من قراءته . فقال له عمرو : والله انك لتعلم اني أعلم انك كذاب : ثم انصرف فبرقرة بن هبيرة وقال له قرّة : ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالانابة : فأجابه جواباً يدل على بعد نظره وقوة جنانه اذ أظهر استهائته بردة العرب وهدد قرّة بالحرب احتقاراً لشأن العرب واطهاراً للجلد الذي هو أنفع شيء للمسلمين في مثل موقفهم ذلك وقد مرّ الخبر عن ذلك في سيرة أبي بكر رضي الله عنه

وبالجملة فقد كان عمرو حسن الصحبة نافعاً في اسلامه وحسبه فضيلة كبيرة وخدمة عظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الامراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكذاب وسترى فيما يلي ان شاء الله : إلا أنه عيب عليه دخوله في غمار الفتنة العظمى وكونه كان اليد القوية فيها والكلام على هذا سيأتي في محله ان شاء الله



○ باب ١٠ ○

﴿ حروبه وفتوحاته ﴾

﴿ فتح مصر وبرقة ﴾

قد مضى معنا في سيرة عمر بن الخطاب ذكر المواقع التي حضرها عمرو بن العاص في سورية والفتح الذي فتحه في فلسطين لما كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ثمّة فلم نَر حاجة لاعادة ذكر ذلك وانما أتى هنا على خبر فتحه مصر وطرابلس الغرب لانفراده بهذه المأثرة الجليلة التي هي من أعظم ما أثر ذلك الرجل الكبير في الاسلام فنقول

كان عمرو بن العاص محباً للإمامة طامحاً للعلاذانفس عالية لا ترضى بالحقير من الاعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب وترتب عليها من التبعات يدلك عليه اقدامه على دخول مصر بجيش قليل وعدة ضعيفة لما أذن له عمر بقصدها حتى كان مما قاله عثمان لعمر يومئذ (ان عمراً لجري الجنان وفيه اقدام وحب للإمامة فأخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيمرض المسلمين للهلكة) ومن تصفح تاريخ حياته ووقف على أعماله سواء في الفتح والإمامة أو في دخوله غمار الفتنة علم انه رجل فذقل ان تجب بمثله الامهات لولا طمع فيه ربما أخذ أحياناً عليه . على انه لم يكن طمعه في دنيا الامور بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالا وأي قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب في تدويخ ملك الفراعنة بجيش يقل عن الاربعة آلاف مقاتل يريد ان يقهر به أمة كان يربو عددها عن العشرة ملايين وكان في البلاد من حامية الروم وحدها اضعاف مامعه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذّبون عنها

ان الذي اطمع عمرًا بمصر ذهابه اليها في الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات ارضها ولكن اقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل أنه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام ان دولة الروم دالت وقواها خارت وان الله موف وعده للمسلمين قلوًا أو كثروا وان جدة الدين والدولة ونزوع العرب الى الفتح وتكاتفهم على اعلاء شأن الاسلام فرصة لا ينبغي للعامل تركها واستتمهال عزيمة النفس في انهازها فافتحم البلاد اقتحام الواثق بالنصر العارف بأساليب الحرب المعتمد على كفاءة جند المسلمين الواقف على شؤون البلاد فافتتحها من أدناها الى أقصاها ورفع اعلام الاسلام على ربوعها فكان له بهذا العمل العظيم أعظم الفخر وأشرف الذكر أبد الدهر

قلنا فيما سبق ان سبب رغبة عمرو في فتح مصر هو دخوله اليها في الجاهلية ووقوفه من أحوالها على ما يجب . وقد نقل المقرئ عن ابن عبد الحكم في سبب دخوله عمرو الى مصر ما خلاصته ان عمرًا قدم الى بيت المقدس لتجارة في نهر من قرش فاذا هم بثماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسبح . وكان عمرو يرى ابله وابل أصحابه وكانت رعية الابل نوبًا بينهم ، فبينما عمرو يرى ابله اذ مرَّ به ذلك الشماس وقد اصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاها فسقاها عمرو من قربة له فشرب حتى روي ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فترع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها فقال لعمر : ما هذه ؟

فاخبره عمرو انه رماها فقتلها . فاقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال : قد احياني الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية : وسأله عما اقدمه هذه البلاد فاخبره انه قدم مع أصحابه للتجارة فرغب اليه ان يصحبه الى الاسكندرية ليكافئه على عمله فأبى وما زال به حتى قبل ان يصحبه الى الاسكندرية بعد ان اخذ عليه العهد والميثاق ليفين بعده معه وانطلق الى اصحابه فاستشارهم وقال لهم : انتظروني ولكم علي ان أساطركم على النصف مما أخذ : وأخذ منهم معه واحدا يأنس به فانطلق عمرو وصاحبه مع الشمس حتى انتهوا الى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة اهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه . ومضى الى الاسكندرية فنظر الى كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة اهلها فازداد عجباً . ووافق دخول عمرو الاسكندرية فيها عيداً عظيماً يجمع فيه اشrafهم في ملعب مشهور ولهم كرة من ذهب يترامون بها فن وقعت في كاه لم يمت حتى يملكهم وكان ذلك فيما اختبروه من تلك الكرة على ما وصفها فيه من مضى منهم وكان الشمس ألبس عمرأ ثوب ديباج واجلسه مع القوم في ذلك المجلس حيث يترامون بتلك الكرة فرمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت في كاه عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبنا هذه الكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا ؟ هذا ما لا يكون ابداً : ثم ان الشمس وفي بيا وعد عمرأ وجمع له من أهل المدينة الف دينار وأصبحه برسوم ودليل فانطلق عمرو الى اصحابه وشاطرهم على النصف مما أخذ

هذا ما نقلوه عن سبب دخول عمرو الى مصر في الجاهلية وسواء

صحت هذه الحكاية او لم تصح فانه ليس فيها شيء من الغرابة الا قولهم

عن السكرة ان القوم اختبروا أمرها واعتقدوا ان من وقعت في كمه هذه السكرة صار ملكا عليهم . وليست المسألة مسألة اعتقاد بل ربما كانت من قبيل التفاؤل أو ان بعض الامارات التي يتناوبها الاشراف كامارة الجيش مثلا كانت لا تعطى إلا على هذا الشرط فأخطأ مؤرخوا الحرب في النقل: وبالجملة فلذي أنار في نفس عمرو والرغبة في فتح مصر هو ما سبق له من دخولها والوقوف على أحوالها وأحوال أهلها يضاف اليه ما عرز في نفسه من حب الامارة والاقدام على جلائل الامور كما قال عنه عثمان رضي الله عنه . وقد تقدم معنا الخبر في سيرة عمر بن الخطاب (رض) عن كيفية مسير عمرو الى مصر وكان أول موضع قوتل فيه الفرما ^(١) قاتلته الروم قتالا شديدا نحو من شهر ثم فتح الله عليه: وقيل انه كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين (بنيامين) فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم انه لا يكون الروم دولة وان ملككم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمر وأعوانا فاذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمر على فتح الفرما هم القبط لان الفرما كانت حصينة جدا. وفي رواية ان فتح الفرما كان بعد فتح دمياط وتيس ثم تقدم عمرو ولا يدافع إلا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فحاصرها

(١) اختلف المؤرخون في موقع الفرما فمنهم من قال انها كانت على البحر الرومي ومنهم من قال انها على بحيرة تيس وقد صارت خرابا وغمرتها المياه والمرجح انها لم تكن على البحر الرومي بل بعيدة عنه لرواية نقلها المقرئ عن يحيى بن عثمان قال كنت أرابط في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله. ويظهر من رواية ابن خرداذبة في الممالك والمسالك ان بين الفرما وبين بلبيس ثلاثة وثمانون ميلا وبين هذه والفسطاط اربعة وعشرون ميلا

حصاراً شديداً ونقل المقريني عن الواقدي أن المقوقس زوج ابنته ارماتوسه من قسطنطين ابن هرقل وجعلها بأموالها وحشمها تسير إليه حتى يني عليها في مدينة قيسارية (من سورية) فخرجت إلى بليس وأقامت بها وأرسل أبوها جنداً إلى حدود الشام كي لا يتركوا أحداً من الروم أو غيرهم يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدث الناس بغلبة المسلمين على الشام فيدخل العرب في قلوب عساكره . ولما أتى عمرو بليس حاصرها حصاراً شديداً وقاتل من بها وقتل منهم زهاء ألف فارس وانهمز من بقي إلى المقوقس وأخذت ارماتوسه وجميع مالها وسائر ما كان للقبط في بليس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير إليه ابنته مكرمة في جميع مالها مع قيس ابن أبي العاص السهجي فسر بقدرتها . وكان هذا العمل من عمرو عملاً جميلاً يدل على حسن سياسة وبعد نظر

ثم إن عمرو سار من بليس إلى بابل أو باب ليون وهو حصن كان بناه الفرس أيام تملكهم لمصر وكان يسميه العرب قصر الشمع وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة في مصر القديمة أو الفسطاط ويقابله على الضفة النيل الغربية مدينة منف عاصمة البلاد يومئذ ومقر المقوقس صاحب مصر . وكان فيه حامية عظيمة وعليها قائد اسمه الاعيرج وكان المقوقس على الحامية أيضاً وقد اختلف المؤرخون فيمن كان على مصر يومئذ فمنهم من قال الاعيرج ومنهم من قال الارطوبون ومنهم من قال المقوقس ومنهم من قال أن المقوقس كان في الاسكندرية كما اختلفوا في أصل المقوقس هل هو يوناني أو مصري والذي ظهر لي أن الاعيرج والارطوبون قائدان لأن أحدهما وهو الارطوبون كان على جيوش الروم

في بيت المقدس وفرا الى مصر لما اخذها المسلمون

وأما المقوقس فهو اير مصر بلا ريب من قبل الروم وكان قصدي استقصاء خبر المقوقس للوقوف على جليلة امره اسكن مجلة المقتطف نقلت في الجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين فصلا عن كتاب الانجيزي الفه حديثاً احد علماء الانجيز وهو الدكتور بطر في تحقيق من هو المقوقس اغنانا عن معاناة البحث وخلاصة حكم المؤلف في هذا الكتاب على ما جاء في المقتطف ان المقوقس كان واليا وبطريقا على مصر من قبل الامبراطور هرقل وهو حكم يقرب من الصواب بدليل نفوذ سلطة المقوقس على المصريين يومئذ نفوذا لا يكون الا لمن بيده قوة السلطة الدينية على ان القرائن التي تحتف اخبار المقوقس مع القبط ومخبراته مع المسلمين تؤيد كونه كان بطريقا نافذ الكلمة في القبط . وكلمة صاحب القبط التي جاءت في تواريخ العرب ومخبرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمذكور ودعودته وقومه الى الاسلام كافية لتأييد ما ذهب اليه الدكتور والفصل الذي لخصه عن كتابه المقتطف لا يخلو من فائدة فايراجمه من احب

نازل عمرو بن العاص الحصن وحاصر من فيه وقتلهم قتالا شديداً يصبحهم ويمسيهم ولما ابطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك فأمدّه بأربعة آلاف رجل على كل الف رجل منهم رجل مقام الالف : الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد . وقيل ان الرابع كان خارجة ابن حذافة وكان عمرو يومئذ في عدة قليلة فكان يفرق اصحابه ليرى العدو انهم اكثر مما هم وقيل ان الزبير جاءه بائني عشر الف مقاتل : ولما علم عمرو بقدوم الزبير تلقاه ثم اقبلا

يزيران فلم يلبث الزبير ان ركب ثم طاف بالخذق ثم فرق الرجال حول الخندق وألح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق فلم يتيسر اخذه وابطأ الفتح وكان الزبير رضي الله عنه من الشجعان المعروفين فقال : اني اهب نفسي لله ارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما على جانب الحصن ثم صعد فامرهم اذا سمعوا تكبيرة ان يجيبوه جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهام عمرو خوفا من ان ينكسر وكبر الزبير فكبرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك الروم ان العرب اقتحموهم جميعا فهربوا وعمد الزبير وأصحابه الى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط الى الجزيرة (أي جزيرة الروضة) على مراكب أعدوا لذلك وتم بذلك الفتح وكان على يد البطل الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه كما رأيت لهذا ينكر بعضهم الفضل لعرو بن العاص في فتح مصر وهو جهل فاضح وتعصب منكر لان فتح البلاد كلها انما كان بحسن قيادة عمرو ودربه ولم يكن عمرو بأقل شجاعة من الزبير أيضا رضي الله عنهما وعن كل رجال الفتح فان لكل منهم فضيلة في عمل وخدمة جليلة للإسلام

رأى المفوقس شدة قتال المسلمين وصبرهم وعلى انهم لا يزالون يقاتلون الروم والقبط حتى تصير اليهم البلاد فاستشار أصحابه بمصالحة القوم وبعث الى عمرو يقول : انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والحجتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصابة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهازوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل (وكان

الوقت وقت الفيضان) وانما أتم أسارى في أيدينا فابعثوا اليينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعلمه ان يأتي الامر فيما بيننا وبينكم على ما نحب ونحبون وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تنشأكم جموع الروم

ولما أتت الرسل الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين ليروا حال المسلمين ثم ردهم وأرسل معهم للمقوقس يقول :

انه ليس بيننا وبينكم إلا احدى خصال ثلاث اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان أيتتم . فالجزية وأما جاهدناكم بالقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين

علمنا ان عمرأ حبس رسل المقوقس ليروا حال المسلمين ويخبروا قومهم عنه لعلمه ان سيرة المسلمين وحدها كانت كافية يومئذ لاعتبار القوم وتعاضلهم وتسليمهم بالأيدي للمسلمين وقد أصاب عمرو بهذا الامر المرمى ولم يخطئ في الظن اذ لما عاد رسل المقوقس سألهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا :

« رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة . والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة . ليس لاحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . انما جلودهم على التراب . وأكلهم على ركبهم . وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفيعهم من وضعيعهم . ولا السيد منهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يفسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » :

هذه الاخلاق الطاهرة والسيرة الجميلة التي رفعت من أقدار القوم وملأت منهم قلوب الاعداء وعيونهم في كل مكان حلوه وبلد قصده فكانت الشعوب لا تلبث ان ترى سيرتهم وتسمع بأخلاقهم فتطمئنه أيدي

الطاعة وتترك اليهم مقاليد الامور توخيًا للسلامة ورضى بسيادة قوم ذلك حالهم وتلك السيرة الطيبة سيرتهم : ومنهم المقوقس الذي لما سمع من الرسل ما سمع قل لقومه : لو ان هؤلاء استقبلوا الجبال لازلوها . وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا . بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقروا على الخروج من موضعهم . ثم أرسل الى عمرو ان يبعث اليه من يكلمه بشأن الصلح فبعث عبادة بن الصامت : وقيل بل طاب منه الاجتماع به وكان مما بعث به اليه قوله :

اني لم ازل حريصًا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت اليّ بها . فأبى ذلك من حضرتي من الروم والقبط فلم يكن لي ان أفتات عليهم وقد عرفوا نصحي لهم وحي صلاحهم ورجعوا الى قولي فاعطني أمانا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه :

فاستشار عمرو أصحابه وكانوا عرفوا جانب الضعف من القبط وطمعوا بالفتح فأشاروا عليه بان لا يجيبه الى الصلح وكان عمرو ينزع اليه ويعرف فائدته فأخبرهم بمهد عمر اليه في ان من أجابه الى خصلة من الثلاث يصلح له : ثم اجتمع عمرو بالمقوقس واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شربهم ووضيعهم من بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وعلى ان للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر

من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها فشرط ذلك كله على القبط خاصة . وأحصوا عدة القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران : رفع ذلك عرفاؤهم بالايان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس « ستة ملايين » فكانت قريضتهم يومئذ اثني عشر ألف دينار « اثني عشر مليون »

هكذا نقل المقرئ يروي رواية هذا العهد وعدد المصريين الذين ضربت عليهم الجزية في سياق خبر الصلح مع المقوقس وفي هذا نظر لا يخفى على بصير اذ أن الذي يظهر من سياق الاخبار ان صاح المقوقس لم يشمل كل المصريين لان من البلاد ما أخذ عنوة بمد عقد الصلح . وعلى تقدير شمول الصلح لكل المصريين كيف يعقل ان يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين مع ان البالغين الملم لو كانوا ربع سكان البلاد للزم ان يكون عدد جميع سكانها من شيوخ وأطفال وشبان ونساء أربعة وعشرين مليون . وهو بعيد عن الصواب . لا سيما وقد جاء في بعض الروايات ان جزية مصر وخراجها مفعلاً بلغا على عهد عمرو بن العاص الالف دينار « مليوني دينار » . ومنها ما رواه البلاذري في فتوح البلدان عن يزيد بن أبي حبيب قال : جى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفي ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح « في خلافة عثمان » أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمر و : ان اللماح بمصر بعدك قد درت البانها : قال : ذلك لانكم أنجتموها :

والفرق بين هذه الرواية والرواية الاولى عظيم كما ترى على انه جاء

في بعض الروايات أيضا ان الذي جباه عمرو هو اثني عشر مليوناً والذي جباه ابن أبي سرح أربعة عشر مليوناً . وكما يضطرب الفكر في مقدار تلك الجزية يضطرب أيضا في قولهم ان الصالح تم مع المقوقس لما فتح عمرو بابليون عن جميع القبط في أسفل مصر وأعلىها وأحصوا بالايان المؤكدة مع ان هذا منقوض بالبداية التي تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقاه المقرئ في فتح الاسكندرية . ان عمرو بن العاص انما صالح المقوقس لما فتح الاسكندرية وهكذا قل الطبري وابن خلدون وهو الاقرب للتوفيق بين تلك الروايات اذ ما نخل وقوع هذا الاحصاء سواء صح عدد أولم يصح إلا بعد فتح الاسكندرية وبقية البلاد واجراء الجميع بحرى الصالح لما هو المشهور عن عمر بن الخطاب في انه اعتبر كل القبط أهل ذمة وعهد وأقرهم على أراضيهم وروى البلاذري ان قري من مصر قانت فوق سبائهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة : وبالجمل فهدا بحث طويل يحتاج الى تمحيص وربما ننود اليه في الكلام على حالة مصر الاجتماعية ان شاء الله ^(١)

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ماتاهدا عليه شرط المقوقس للروم على ان يُخَيَّرَوا بين الرضى بما رضى به القبط . وبين اللحاق ببلاد الروم . وكتب

(١) بعد كتابة ما كتبناه هنا قرأنا كتاب العهد الذي أعطاه عمرو للمقوقس كما تراه مبسوطا في باب أخباره فاتضح لنا منه أن عمرا كتب للمقوقس في كتاب العهد على أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا العهد أي اذا رضوا به جميعهم بعد تمام الفتح : وبهذا انحل الاشكال واتضح أن المصريين جميعهم قبلوا بما صالح عليه المقوقس عمرو بن العاص بعد الفتح ومن ثم كان الاحصاء

المقوقس الى ملك الروم بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتابا يوبخه فيه على التسليم ويوهن جانب المسلمين وكتب بنثل ذلك الى قواد الروم في الاسكندرية وغيرها فاعادوا الكرة على المسلمين فقاتلهم عمرو حتى ألجأهم الى الاسكندرية ثم حاصره فيها وافتتحها عنوة وجلا عنها الروم

هكذا انتهى فتح بابليون وأعطى المقوقس يده ويد القبط للمسلمين مع انه يوناني الاصل وأكثر الروم وثقة بأبوا ان يوافقوه على الصلح وقاتلوا المسلمين في كل بلد أراد فتحه عمرو وقواده الذين بهمهم لاتمام فتح البلاد

والذي يظهر للتأمل في أخبار فتح بابليون ان نظام الدفاع في البلاد المصرية كان مختلفاً جداً اذ ان عمرو بن العاص كان قليل الجند ولا يسمه ترك عامية من جنده في البلاد التي افتتحها في دخوله الى مصر لئلا يحفظ خط الاتصال بينه وبين جيوش المسلمين بالشام فهو بالضرورة جاء بكل جيشه الى بابليون واصبح في قلب البلاد فلو كان ثمة نظام حسن للدفاع عند الروم كما كان ذلك في سورية لا نكفأوا عليه من اطراف البلاد وحاصروه في مستقره حصاراً لا مناص له بعده من الموت أو التسليم واعمل السلطة العامة لم تكن يومئذ متوفرة للمقوقس وكان عمال الاطراف كل واحد منهم مستبداً على الآخر يعد أسباب الحيلة لنفسه دون غيره .

وربما كان هذا الامر من أهم الأسباب التي دعت لتسليم المقوقس وطلبه الصلح والامان للقبط كما كانت لهذا أسباب أخرى أيضاً - منها نفور القبط من سيطرة الكنييسة الشرقية وتأففهم من سلطان الروم كما يقول مؤرخو المسيحيين ، ومنها تحقق المقوقس من علو شأن المسلمين واستحالة

النخلص من الرضوخ لسيادتهم بعد ان درخوا الشام وازبحوا دولة الروم وقهروا الامبراطور هرقل وكسرى يزجرد يدلك على هذا اجتهد المقوقس في منع أخبار المسلمين عن المصريين لما قهروا الروم في سورية خوفاً من ان يفت ذلك في عضدهم ويدخل الوهن والفرع على نفوسهم ومنها وهو الاله تواتر الاخبار عن حسن سيرة المسلمين في البلاد التي افتهتجوها واطلاقهم لاهلها حرية الفكر والدين وعدم مسهم بشيء من الاذى والجور كما مرت الشواهد الكثيرة على ذلك في هذا الكتاب وهذا مادعا البطريرك بنيامين الى ممالأة عمرو وتحريره القبط على التسليم كما سترى الخبر عن ذلك آخر الفصل ومحتمل أيضاً ان تكون مساعدة المقوقس للمسلمين ناشئة عن طمعه بالاستقلال لانه من أصل مصري وكان ميالاً للاستقلال منذ دخول الفرس الى مصر كما يقول جبون لو لم يوهن هذا الرأي اجماع أكثر المؤرخين على انه من أصل يوناني وجبون يقول انه كان من أشرف البلاد وكان ربما تظاهروا بالاستقلال على ان الدكتور بطريرك يرى ان نفوذه على القبط انما كان كبيراً لانه كان والياً وبتريكاً كما تقدم قوله هذا والله أعلم لما بعث الامبراطور الى المقوقس ينكر عليه فعله ويوبخه جمع جماعة الروم عنده وأعلمهم انه لم يصالح المسلمين الا صوتاً لمصلحة البلاد بسبب ما عرف عنهم من القوة والشجاعة وما سبق لهم من قهر الامبراطور وجيوشه في سورية وما شاهده بنفسه من أخلاق العرب وأحوالهم ودرجة قوتهم واستعدادهم ثم قال لهم : واعلموا معشر الروم اني لا أخرج مما دخلت فيه وما صالحت العرب عليه واني لأعلم انكم سترجعون غداً الى قولي

ورأيي وتمنون لو كنتم أطعموني وذلك اني رأيت وعانيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه أما يرضى أحدكم أن يكون آمنا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة : ثم أقبل المقوفس الى عمرو فقال له : ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب اليّ والى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم . ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقبتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطأني وقد تم صالح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصالح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . وأما الروم فأنا منهم بري ، وأنا أطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال - لا نقض بالقبط وادخاني معهم والزني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلنتهم على ما عاقبتك عليه فهم متمون لك على ما تحب ، وأما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجمعهم فيثا وعبيداً فانهم أهل ذلك لاني نصحتهم فالتفتشوني ونظرت اليهم فاتهموني ، وأما الثالثة فأطلب اليك ان أنا مت أن أمرهم أن يدفوني بحسر الاسكندرية : فأنتم عليه عمرو بذلك وأجابه الى ما طلب على ان يضمنوا له الجسرين ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور ما بين الفسطاط الى الاسكندرية فتم له ذلك وصارت القبط له أعواناً كما جاء في الحديث

وأنت ترى ان هذا الكلام يؤهم ان الصالح تم مع كل القبط في أعلا مصر وأسفلها مع ان عمرا تم بعد فتح بابلون فتح البلاد التي لم تذعن بالطاعة كما أشرنا اليه قبل فلا ندري هل استعصى أهلها بعد ورود كتب الروم على أمراء الروم بعدم التسليم والطاعة وبمجاربة المسلمين أم كان

الذين دخلوا بالحرب بعد ذلك مع المسلمين هم حامية الروم التي في البها
واليك بقية أخبار الفتح فمحاصرها ان شئت

روى البلاذري ان عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد
ابن حذافة السهمي الى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها
مثل حكم الفسطاط . ووجه خارجة بن حذافة العدوي الى الك
والاشمونين وأخيم والبشردات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك . و
عمير بن وهب الجمحي الى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودق
وبنا . وبوصير ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة بن عامر الجهني ويقال و
مولاه صاحب سوق وردان بمصر الى سائر قرى أسفل الارض ف
مثل ذلك . فالتجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض
وذكر المقرئ ان الذي بعثه عمرو الى دمياط هو المقداد بن الا.

وان الذي يشبه الى الفيوم هو ربيعة بن حبيش بن عرفة الصديقي
أهل الفيوم فلم يقاتلوا وأعطوا بأيديهم وأما أهل دمياط فقاتلوا وكان
دمياط أمير اسمه الهاموك استعد لقتال المسلمين فلما جاء المقداد
وقتل ابنه فانهزم وعاد الى دمياط واستشار قومه وكان فيهم رجل
عاقل قد حضر الشورى فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له
استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهذا
العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحو البلاد وأذلوا العباد
لأحد عليهم قدرة . ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع .
القوم قد أيدوا بالنصر والظفر . والراى ان نعقد مع القوم صلحا ننا
الامن . وحقن الدماء . وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوق.

هذه النصيحة ولا نكران للحق نصيحة صادق عاقل وهي نافذة لو وجدت من الهاموك اذنا صاغية ولكنها لم تجد لانه لم يعبا بقوله وغضب عليه فقتله وشرّ الاخلاق الحمق والتسرّع . وكان للرجل ابن عاقل أيضاً اسمه شطا فعرف جناية أبيه على الرجل وعلى قومه أيضاً اذا أصرّ على قتال العرب وكان له دار ملاصقة للـ سور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ولما علم الهاموك بما وقع سقط في يده واستأمن للمقداد فتسلم المقداد البلد وجاءه شطا وأسلم ثم لكي يظهر صدقه وصداقته للمسلمين خرج الى البرلس والدميرة وأشمو طناح فشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس^(١) وكان عليها رجل من العرب المنتصرة يقال له أبو ثور فبرز اليهم في نحو عشرين ألفاً من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزم أصحابه وامتلك المسلمون البلد

قدمنا ان الامبراطور كتب الى من بالاسكندرية من الروم بأن يأذنوا العرب بالحرب وبعث العدة والجند . وكان عمرو بن العاص ينتظر الحصار الزيل ليتمكن من الخروج ولما أمكنه ذلك خرج وقد عقب له القبط الاسواق

(١) تنيس هذه كانت قرب دمياط على عشرة اميال منها وقد اطنب بذكرها المقرزي وذكر انه كان فيها من البساتين والمصانع والمعامل والغنى والثروة ، الا يوجد في بلد مصر وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يسمى البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غبر أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تتحوج الى تفصيل ولا خياطة تباع قيمته ألف دينار ولم تزل تنيس عامرة حتى خربها الملك الكامل في سنة أربع وعشرين وسبعمائة (مهاجمة الفرنج لها) فاستمرت خراباً ولم يبق منها الا رسومها في وسط البحيرة

وأقاموا له الجسور وفاءً بالمعاهدة التي تمت بينهم وسمع بذلك الروم فاستجاشوا واستعدوا وقدمت عليهم مراكب عليها جمع عظيم من الجند بالعدة والسلاح نخرج اليهم عمرو متوجهاً الى الاسكندرية فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط فتي فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالاً خفيفاً فهزمهم ومضى عمرو بمن معه حتى اتى جمع الروم بكوم شربك فاقتتلوا ثلاثة ايام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم اكدتافهم . ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بضعة عشر يوماً وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة فأصابته جراحات كثيرة فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فأنشد :

أقول لها اذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي او تستريحي

ثم رجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال : فقال عمرو : هو ابني حتماً : وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة واتبعهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن . فنزل المسلمون معهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والملوفاة :

والذي أحسبه ان القبط انما ألجأهم الى الانحياز للمسلمين انهم لما عاقدوهم على الصلح وغضب من ذلك الامبراطور هرقل خافوا ان يذنب منهم ومن المقوقس اذا هو ظفر بالمسلمين فكانوا عوناً لهؤلاء تخلصاً من سيادة الروم وتقادياً من الوقوع ثانية في شرك الامبراطور وان ينالهم منهم أذى على مما ألأتهم للمسلمين

اهتم الامبراطور هرقل لمهاجمة العرب للاسكندرية وحصارهم لها وخاف من تقاص ظل سلطانه عنها كما تقاص عن سورية فزم على الشخصوس

بنفسه الى الاسكندرية ويذنا هو يتجهز للسفر فاجأه المنون وكانت وفاته على قول العرب سنة عشرين مع انه توفي سنة (٦٤١ م) وهي توافق سنة (٢١ هـ) فعلم وفاته كانت في الحصار اثنائي للاسكندرية فانكسرت بموته شوكة الروم واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية واقتحموا الحصن فحاشت عليهم الروم وقتلهم أشد قتال حتى أخرجوهم من الحصن جميعاً الا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقت عليهم الابواب وهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد واثان آخران فالتجأوا الى ديماس من حمايتهم فدخلوا فيه واحترزوا فكلهم واحد بالعبية ان يخرجوا والروم يفادون بهم أسراهم فأبوا وخاف الروم من اقتحامهم فقال لهم الرومي هل لكم الى خصلة وهي نصف فان غاب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وان غلب صاحبكم صاحبنا سبيدكم الى أصحابكم . فرضسوا بذلك وتعاهدوا عليه فتداعوا الى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدهته فأراد عمرو ان يبارزه فزعه مسلمة وقال ما هنا ؟ تخطى مرتين تشد من أصحابك وأنت أمير وانما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتعرض للقتل فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ؟ مكالك ؟ ! وأنا أكيفيك ان شاء الله تعالى : فقال عمرو دونك فرجها الله بك فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله وقتل الرومي ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدري الروم ان أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك وأسفوا وكان مسلمة برز لرجل رومي وهم على الحصار فصرعه الرومي فاسمعه (٧٥)

عمرو وكلاماً يؤذيه فلما خرجوا هذه المرة ورأى عمرو من كرم أخلاق مسلمة ما رأى استحيى عمرو منه وقال له استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له . وقال عمرو ما أخشت قط الا ثلاث مرات مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة الا ندمت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت ووالله اني لارجو ان لا أعود الى الرابعة

أبطأ على عمر بن الخطاب خبر الفتح وقال والله ما أبطأوا بالفتح الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو يلومه على الابطاء ويحذره من ان يحدث المسلمون في اخلاقهم ما يبغضونهم في الفتح ويأمره ان يخطب الناس ويحضهم على القتال والصبر وحسن النية وبقدم القواد الاربعة الذين ارسل له معهم المدد وهم الزبير والمقداد ومسامة وعبادة في صدر الجيش ويصدم بهم العدو صدمة واحدة : فلما جاءه الكتاب قرأه على المسلمين وفعل ما أمره به عمر فكان الفتح ودخل المسلمون المدينة بعد حصار ستة أشهر وقيل أكثر من ذلك

وتبع عمرو الفارين في البر من الروم وقيل ترك حامية في المدينة وقفل الى القسطنطينية فبلغه نكث الروم في الاسكندرية وقدم مراكب تحمل العدة والرجال وانهم قتلوا الحامية فماد الى الاسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا وامتنعوا فحاصروهم حتى افتتحها وكان فتحها الثاني على يد رجل يدعى ابن بسامة طلب من عمرو ان يؤمنه على ارضه وماله ففعل ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو الى المدينة وفر الروم في البحر حيث أعدت لهم المراكب وارسل عمرو بنحبر الفتح الى عمر بن الخطاب مع معاوية بن خديج ثم كتب اليه يصف له حال المدينة وعمرانها وان المسلمين يطلبون

قسمتها بينهم فكتب له ينهاه عن قسمتها ويأمره بان يجعل الاسكندرية ذمة ويضرب على أهلها الخراج ليكون عوناً لهم على عدوهم . ففعل وتحول عمرو من الاسكندرية الى القسطنطينية وما زال عمر بن الخطاب بعد ذلك يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية وكان لا يغفلها ويكشف مخابراتها خوفاً من الروم

هكذا تم لذلك الفاتح الجليل فتح الاسكندرية التي كانت أجمل مدن العالم في وقتها وأغناها وأوسعها تجارة وأزهاها وذلك ما ذكره مؤرخو العرب عن كيفية فتح الاسكندرية وأما ما ذكره الافرنج فأكثره مأخوذ عن تواريخ العرب ومنهم المؤرخ الانكليزي الشهير جيون فإنه نقل أخبار فتحها كما جاء في تواريخ العرب وزاد عليها ما نقله عن يوتيوخوس المؤرخ القبطي ان العرب حاربوا على اسوار الاسكندرية كالاسود وانهم فتحوها بعد حصار ١٤ شهراً وقتل ٢٣ الفا من المسلمين . على ان لا نسلم له بهذه الرواية لان جيش المسلمين كله لم يبلغ هذا العدد يومئذ

— تحقيق الكلام في حريق مكتبة —

(الاسكندرية)

لغبط بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الاسكندرية وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة فاستأذن أمير المؤمنين عمر عن حرقها وأحرقها وهو خبر مختلف لا اصل له من الصحة واغرب ما فيه من الاغراق في الكذب الذي يدل على عدم صحته ان قالوا ان عمرو ابن العاص أمر بتوزيع تلك الكتب على الاربعة آلاف حمام التي ذكروا

انها كانت موجودة في الاسكندرية وانها كفتها ستة اشهر . فلوان ذلك الاخرق الذي كتب هذا الخبر قدر لكل حمام في كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) بلغ عدد المجلدات التي أحرقت ٧٢٠ مليون مجلد فأى مكتبة في العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من الكتب وأي عاقل يتصور صدق هذا الخبر الذي ينقض بعضه بعضاً على ان المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الاسلامي وان الذي بقي منها نقل بعضه امبراطرة الرومان الى القسطنطينية وما بقي احرقه الامبراطور تيودورس لما أمر بحرق الهياكل الوثنية في الاسكندرية وأيد هذا الرأي سديو في تاريخه المسمى خلاصة تاريخ العرب

والذي يدل على اختلاق هذا الخبر انه لم يرد في تواريخ المتقدمين من اهل الاخبار كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري وهذه هي التواريخ التي نقل عنها المتأخرون أخبار الفتح وهي موجودة بين ايدينا الا تاريخ الكندي وتاريخ مصر لابن عبد الحكم ومع ذلك فقد نقل عنهما المقرئ والسيوطي أخبار الفتح ولم يأت في تلك الاخبار ذكر لمكتبة الاسكندرية البتة . بل اغرب من ذلك ان يوتيوخوس الذي هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة . وهذه كتب المحدثين التي أحصت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شيء من ذلك البتة وانما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين عن غير روية ولا تحقيق ونقله الافرنج على صورته الغريبة عن أبي الفرج المطالي مع انه لم يرد في تاريخ احد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها . على ان الخبر على ما فيه من الزايلة والاغراق في الباطل الذي يكذب بعضه

بمضا قد صار عند علماء البحث مفروغا منه لتحقق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمرو بن العاص وانما أوجد فكرة هذا البحث وجود ذلك الخبر في تاريخ أبي الفرج . وانا زيادة في البيان ودفعاً للريبة نقل هنا كل ما عثرنا عليه من كلام العلماء والمؤرخين عن هذه المكتبة فنقول

افرد جبون في تاريخه (سقوط الامبراطورية الرومانية) فصلاً مخصوصاً بحث فيه عن حرق مكتبة الاسكندرية ومما جاء في ذلك الفصل بعد حكايته لكيفية حرقها وما ذكره أبو الفرج عنها قوله: « بعد ما نقل كتاب أبي الفرج الى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة الكتاب تأسفوا كلهم على احتراقها لضيع كثير من العلم والادب فيها وأما أنا (يعني نفسه) فاني شديد الميل الى انكار الحقيقة والنتيجة » : يعني أنه ينكر حقيقة حرقها وينكر انه كان فيها شيء من العلم والادب وجاء في ذلك الفصل أيضاً قوله

والغريب ان هذه الرواية يكتبها رجل من أطراف مادي (ملائكة الفرس) ويسكت عنها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما يوتخوس الذي كتب تاريخ الاسكندرية في القرن السادس

وجاء في ذلك الفصل أيضاً : ان تعاليم الاسلام تخالف هذه الرواية لأن تعاليمه ان الكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة في الحرب لا يجوز احراقها وأما كتب العلم والفلسفة والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فانه يجوز الانتفاع بها

ويقول في خاتمة ذلك الفصل : اذا كان ما أحرق من هذه المكتبة في الحامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين وأصحاب الطبيعة

الواحدة فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر:
 هذه خلاصة ماجاء في تاريخ جبون الا ان في حاشية هذا الفصل
 الذي كتبه جبون كتابة يرد فيها كاتبها عليه بظهور كتب عربية (يعني
 في اوروبا) بعد عصر تأليف التاريخ تؤيد ماجاء في تاريخ أبي الفرج وذكر
 من تلك الكتابة تاريخ ابن خلدون ورحلة عبد اللطيف البغدادي وغيرهما
 كما ستري بعد في الفصل الآتي المنقول عن رسالة شلي افندى النعماني
 أستاذ اللغة العربية في مدرسة على كده بالهند سابقاً وناظم مدرسة العلوم
 بحيدرآباد الدكن الآن

ألف ذلك الفاضل رسالة باللغة الاوردية ترجمت الى الانكليزية في
 الرد على من قال بحرق عمرو لمكتبة الاسكندرية لا انا لم نظفر بتلك
 الرسالة فاجتزأنا من مضمونها بما لخصته عنه مجلة الهلال في سنتها الثانية
 قالت بعد مقدمة حسنة في تقرير الرسالة

وخلاصة ما أراد اثباته (يعني مؤلف الرسالة) ان أول من نسب حريق
 مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طبيب
 يهودي اسمه قارون ولد سنة (١٢٢٦ م) في ملاطية وكان ولده قد تنصر
 فشب هو على النصرانية وأتقن اللغتين السريانية والعربية فعينوه أسقفاً لمدينة
 جوبابوهر في الحادية والعشرين من عمره وما زال يرتقي حتى لم يبق فوقه من
 الاكليريكية إلا منصب البطريرك ثم ألف تاريخاً في اللغة السريانية
 استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا
 التاريخ كتاباً في العربية سماه مختصر الدول وهو أول كتاب ذكرت فيه
 مسألة حريق الاسكندرية وتناقها عنه كتاب الافرنج الى هذه الغاية

حتى قام المؤرخ جيون الانكليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذي تقدم) وأظهر ارتيابه في صحته لعدم وجود الأدلة عليه لأنه كتب بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة ولم يذكره أحد قبل ذلك فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول . غير ان المجتهدين منهم في خلع هذه التهم عن الافرنج والباسها للعرب عادوا فقالوا ان هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط وانما ذكرها المقرئ وعبد اللطيف البغدادي وحاجي خليفة من مؤرخي الاسلام حتى قال بعضهم ان ابن خلدون أيضا قد ذكرها قال الهلال ثم أخذ صديقا (أي مؤلف الرسالة) في تفنيده هذه الاسانيد فقال :

أما ابن خلدون فناربخ متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم ان لا ذكر لهذه الحادثة فيه على الاطلاق . أما المصادر الثلاثة الباقية فثبت أولا انها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة لان المقرئ ذكر المكتبة نقلا عن عبد اللطيف حرفا حرفا فيبقى عبد اللطيف وحاجي خليفة . أما عبارة حاجي خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الاسكندرية وانما أشار الى ان العرب في صدر الاسلام لعلمهم بالوحي وخوفهم من تسلط العاوم الاجنبية على عقولهم كانوا (على ما قيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي بفتحتونها . فيظهر من ذلك ان عبارة حاجي خليفة لا تقيد ما أراده لانه انما يريد الاشارة الى عدم اعتناء العرب بالعلم والكي يؤيد قوله ألمع الى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة

أما عبد اللطيف البغدادي فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السواري وهذا نص عبارته « وعمود السواري عليه قبة هو حاملها

وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسططاليس وشيعته من بعده وانه دار العلوم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن الاوص بأمر عمر رضي الله عنه، فيظهر من نص العبارة انه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخزافة تتداولها الالسنه فذكرها على علاقتها على ان عبارته هذه بجملاتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث ثم أعقب هذا بالادلة على عدم إمكان احتراق المكتبة بأمر الخليفة عمر أو غيره من الخلفاء أو الامراء المسلمين وأثبت أخيراً انها انما احترقت قبل الاسلام أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان وأتم على باقيها بطاركة الاسكندرية قبل الاسلام :

انتهى ما لخصه الهلال عن رسالة شبلي افندي النعماني واليك ما كتبه المرحوم على باشا مبارك في الخطط التوفيقية في شأن هذه المكتبة نقلاً عن مؤرخي الافرنج قال :

قد ذكر أعيان مارسلون عند التكلم على السير ايوم « بناء قديم بالاسكندرية ومحل يعرف بعامود السواري » انه كان به دار الكتب الكبيرة التي كانت ملحمة بالسرايات . ويؤيد ذلك ما ذكره وتروف حيث قال انه كان بمدينة الاسكندرية دار كتب غير الكبيرة ولم يكن ثم غير الموجودة في معبد السير ايوم ولبعدها عن الميناء لم تصلها الحريقه التي احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الاسكندرا بين قيصر . وقد قيل ان عدد ما كان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠٠٠٠ مجلد وفي زمن كيلوباتره أضيف اليها مائتا ألف مجلد كانت بدار كتب مدينة بيرجام فأخذها انتوان معشوقها وأهداها اليها وبعد احتراق دار الكتب الكبرى صار لا يوجد بمدينة

الاسكندرية غيرها وبمدان كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ألقا بمعبد السرايوم ومن ذلك الحين اتسعت شهرته الى القرن الرابع من الميلاد ، ونقل أمير الفرنساوي ان هذا المعبد احترق مرتين مرة في زمن القيصر ماركوبل ومرة في زمن القيصر كومول . وفي خطط الفرنساوية ان إحراق السير ايوم كان بأمر البطريق بتوفيل بعد توقف كثير من العلماء والاهالي ثم بنى محل السير ايوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر اركاديوس المتولي تحت القيصرية بعد القيصر تيودوز الاكبر وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقتة النار وشيئا كثيرا من كتب النصرانية وهي التي ينسب حرقها الى عمرو بن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك اليه فان هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ولم يظهر ذلك الا في القرن الثالث عشر من الميلاد عن كتاب ينسب الى أبي الفرج بطريق حاب مع انه لم يذكرها في تاريخه العام ^(١) وفي النبذة السنوية لمجلس مصر (اللانديستيتو) أي

(١) قوله لم يذكرها في تاريخه العام لعله يريد به تاريخ مختصر الدول المطبوع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠ م فهذا المطبوع حقيقة لم نرفيه ذكرنا لمكتبة الاسكندرية مع ان شبلى أفندي النعماني قد ذكر ان الجملة اما جاءت في تاريخ مختصر الدول هذا ! وجبون قال انها جاءت في ترجمة تاريخه اللاتينية ولا نعلم هل كانت الترجمة اللاتينية هي ترجمة تاريخه السرياني أم تاريخه العربي المعروف بمختصر الدول فلا يخلو الامر اما ان الطابع تبرئة لأبي الفرج والصاقا لهذا الخبر بالساميين حذف هذه الحكاية من تاريخ مختصر الدول قبل طبعه ثم طبعه وأما أنها جاءت في تاريخه السرياني وانه هو الذي ترجم الى اللاتينية ونقل عنه الافرنج والذي يظهر هذه الحقيقة اني ظفرت عند صديق لي من المشتغلين بالتاريخ بالنسخة السريانية الا أنها مكتوبة بالخط الكلداني الذي تصعب قراءته

المجلس العالمي من ضمن ما قيل في جلسة أغسطس سنة ١٨٧٤ ميلادية ان بولص أورو ز من تلامذة ماري اجستان وماري جيروم لم يجد شيئا من الكتبخانة حين مروره بالاسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد يعني قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة . فالظاهر ان القول بان إحراق كتبخانة اسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو ومحض افتراء اختلقه قسوس النصارى فانه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الاسلام . والكتب القديمة الموروثة عن الاعصر الخالية قد تحتها أيدي النصارى : انتهى كلام الخطط ومنه يعلم تضارب روايات القوم في حرقها والمحاصر تحقيقهم في زمن وقوعه قبل الاسلام لانه كان كذلك ومن المستحيل ان يبقى في هذه المكتبة مع توالي الحرق عليها والنقل منها ما تصل اليه يد عمرو بالحرق أو ما يكون فيه فائدة يؤسف على فقدها والسلام

✽ عود الى خبر الفتح ✽

أثم عمرو رضي الله عنه بفتح الاسكندرية فتح مصر وتحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الفسطاط بعد ان أقره واليا عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة الى الرعية وأشد هم قياما على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين فلم يدرك المصريين في ولايته

على من لا يعرفه جيداً وقد كانت صديقي بقراءة الخبر على فتح الاسكندرية فلم يجد فيه حكاية مكتبة الاسكندرية فبقى ان الذين طبعوا الكتاب هم الذين خذفوا منه الخبر . وقد جرت عادة اليسوعيين بالتصرف بالكتب التي يطبعونها فيحرفون فيها ويزيدون ويتقصون

ما أدركهم في ولاية غيره من الجهد وهابه الروم وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيما ومارتها اليه محبة حتى شبه يوما مارتها بالخلافة اذ روي عن ابن لهيعة انه قال كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة : وكان القبط على عهد الدولة الرومانية كعبيد لاهل الدولة من الروم وبين الفريقين نفور شديد لتباين في المذاهب والاعتقاد أدى الى العداوة وهي العداوة المذهبية التي ابتلي به كل أرباب الاديان فلما فتح عمرو مصر أطلق القبط من أسر الضيم الذي عانوه على عهد الدولة الرومانية وكان أول ما بدأ به بعد ان استعقرت له الامور ان كتب امانا الى البطريك بنيامين بطريك الاسكندرية وردده الى كرسيه بعد ان تغيب عنه ١٣ سنة منها عشر سنين على عهد استيلاء الفرس على مصر . ومنها ثلاث سنين بعد رجوع سلطة الامبراطور هرقل اليها فسر ذلك العمل البطريك وشكره عليه كما ذكر ذلك المقرئ . وهذا من جملة السياسة النافعة التي اشتهرت عن عمرو وقد ذكر هذا الخبر أيضا جيون في تاريخه وقال ان البطريك بنيامين كان يثني على عمرو بن العاص ويقدر عمله قدره .

ولا جرم ان وجود البطريك بعيدا عن كرسيه مدة ١٣ سنة ثم عوده اليه على عهد الحكومة الاسلامية يوجد في نفسه ونفس القبط ثقة كبرى بالمسلمين ونحن لانشك بانها اذا كان هناك يد لاحد بمساعدة عمرو على فتح مصر فانما هي لذلك البطريك يد لك عليه ماقلناه عن بعض مؤرخي العرب عند الكلام على فتح الفرما من قولهم انه كان بالاسكندرية اسقف اسمه أبو ميامين كتب الى القبط يعلمهم بقرب زوال ملك الروم

ويأمرهم بتأقي عمرو حتى كان قبض الفرما اعوانا لعمرو . وانما اشتبه على العرب الاسم فاختأوا في نقل الحكاية والذي يظهر ان الذي كتب ما كتب هو البطريق بنيامين وانه كتب من منفاه في منف لا من الاسكندرية والقرائن كلها تدل على ان له يدا في مساعدة العرب وانهاض القبط لتعضيدهم فان جبون ذكر ان عمرأ لما فتح مصر سر القبط الذين هم على مذهب اليماقبة سرورا عظيما وأخذوا من ثم يخطبون باسم مذهبهم على المنابر مع انه قال ان أهل المذهب الملكي هو مذهب الدولة كانوا نحو عشر السكان فهذا يدل على ان هذا الشرکان مضطهداً لبقية السكان حتى ما كانوا يستطيعون الدعاء باسم مذهبهم والجهربه وان قوما هذا شأنهم مع حكومتهم لجديرون بمالاة المسلمين لاسيما مع علمهم بان الحكم الاسلامي مؤسس على اطلاق حرية الاديان وان المسلمين لا يتعرضون لأهل البلاد المفتوحة في عوائدهم ودينهم بشيء البتة

وبالجملة فقد كانت اماره عمرو على مصر من أبرك الامارات وأرغبها للقبط وغيرهم ولم تقف به همته السماء ونفسه العالية عند الغناء بفتح مملكة الفراعنة بل طمح الى ما هو أبعد غاية وهي بلاد المغرب ليبسط جناح الاسلام على كل أفريقيا الشمالية فتقدم بجيشه سنة (٥٢١هـ) يحترق الصحراء حتى بلغ برقه فافتتحها وافتتح فرصتها بنغازي ثم طرابلس الغرب ولما عزم على التوجه منها الى أفريقيا (تونس) فالجزائر ثم الغرب الأقصى جاءه كتاب أمير المؤمنين عمر (رض) ينهاه فيه عن التفرير بنفسه وبالمسلمين ويأمره بالوقوف عند ذلك الحد كما مرّ الخبر عن ذلك في سيرة عمر فماد مكرهاً بعد ان استخلف على البلاد بطل أفريقيا عقبه

ابن نافع الفهري القرشي الذي صار اليه بعد ذلك فتح المغرب
ولقد والله يحار عقل الحكيم في أقدام أولئك الفاتحين وجراتهم
على التغفل والامعان في أقاصي الممالك بعدد دم القليل وعدتهم الضعيفة
حتى افتتحوا في ثلاثين سنة ما لم يفتحه غيرهم في أجيال ومهما بحث العاقل
عن علة هذا التوفيق الغريب لا يجده إلا حسن السيرة والسير مع الأمم
المغلوبة على نهج الحق والعدل . وإن في هذا لتبصرة وذكرى للعاقلين

—•••••— باب —

ولابته على مصر

✽ أناره فيها وأخباره مع عمرو وما كان من المكاتبات بينهما ✽
فلما ان عمرو بن العاص تحول الى الفسطاط بعد فتح الاسكندرية
وسبب تحوله انه لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها
هم ان يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها : فكتب الى عمر بن الخطاب
يستاذه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء : قال نعم
يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل : فكتب الى عمر اني لأحب ان تنزل
بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف : فتحول عمرو
الى الفسطاط ولم يكن فسطاط بل كان أرضا فيها بعض جنات مما يلي
بابلون الى الجهة الشمالية وبعض كنائس للنصارى : وقيل في تسميته
الفسطاط ان عمراً لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال الروم أمر بنزع
فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرّخ فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم : فأمر به
فأقر وأوصى به صاحب القصر . فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا :

أين نزل ؟ قالوا الفسطاط : لفسطاط عمرو الذي كان خفيه وقيل سحي فسطاط عمرو أي مدينة عمرو : لان الفسطاط لغة هو المدينة ولعله هو الصواب لما تحول عمرو الى الفسطاط ورأى تنافس القبائل على المواضع أمر بتخطيط مدينة هي مدينة الفسطاط التي هي من آثاره العظيمة في هذا القطر لانه اختط عاصمة جديدة لمصر على ضفة النيل الشرقية تقابل منف^(١) على الضفة الغربية فأصبحت حاضرة البلاد المصرية ولم تزل كذلك بعد بناء القاهرة الى الآن . ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولّى على الخطط (وهي الحارات) معاوية بن خديج التجيبي ، وشريك بن سحبي الغطيفي ، وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحيويل بن ناشرة المغافري ، فاخطوا لكل قبيلة خطة . واخطوا مكان الجامع المعروف الى الآن بجامع عمرو اذ كتب عمر الى عمرو بن العاص بذلك كما كتب لكل الامراء يأمرهم ان يبنوا في كل مدينة مسجدا جامعاً ولا يتخذ القبائل كل قبيلة مسجداً وجعلوا ذرع المسجد خمسين ذراعاً في عرض خمسين وجعلوا سقفه مطاطاً جداً واتخذ عمرو فيه منبراً من أعواد فكتب اليه عمر يعزم عليه في كسره ويقول . اما بحسبك ان تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره : ولم تكن الجزية تقام في زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر إلا بهذا الجامع

ثم ان المسجد ضاق بالمصلين بعد في ولاية مسامة بن مخلد فاستأذن معاوية في الزيادة فيه فأذله بذلك فزاد به وطلاه بالنورة وزخرف سقفه .

(١) لا تقابلها تماماً بل منف كانت الى جهة الجنوب عن سمت الفسطاط جهة

وأمر معاوية ببناء الصوامع (المنائر) للأذان فبنى مسلة فيه أربع صوامع وفرشه بالحصار وكان مفروشا بالحصباء : ثم هدمه عبد العزيز بن مروان في سنة تسع وسبعين من الهجرة وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت بحريه ولم يجد في شرقيه موضعا يوسعها ثم هدم في زمان قرة بك شريك في خلافة الوليد وزيد فيه وغير وبدل وهكذا كان يتعاوره الخلفاء والامراء بالاصلاح حتى اختطت القاهرة وكثرت الجوامع والمساجد وقل ساكنوا الفسطاط فترك الجامع وهو لم يزل الى الآن متروكا ويحتفل بالصلاة فيه آخر جمعة من رمضان لكنه في حالة لا ترضى أبداً . ولو كان المصريون ممن يعينهم حفظ آثار الرجال لجملوا هذا الجامع من أحسن جوامع مصر أحياء لذكر صاحبه وتخليداً لذكر الفتح

وأما تقسيم الخطط وترتيبها بالفسطاط لما خطط في زمن عمرو فالكلام عليه يطول وهو مبسوط في كتاب الخطط للمقريزي فايراجعه من أحب

ومن آثاره المشكورة في مصر حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين وعرف بعدد بـخليج القاهرة الذي كان يمتد من الفسطاط الى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الاحمر والهند . والخليج قديم جدا قبل الاسلام الا انه طم وتعطل قبل الفتح فخفره عمر بن العاص وكان سبب خفره على ما نقل المقريزي عن ابن الحكم بروايته عن الليث بن سعد قال : ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة . فكتب الى عمرو ابن العاص وهو بمصر .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي : سلام أما بعد
فأعمرني يا عمرو وما تبالي إذا شبت أنت ومن معك من أهلك أن أهلك
أنا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه :

(فكتب إليه عمرو) من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين.
أما بعد . يالبيك ثم يالبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها
عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فبعث إليه بعير (قافلة) عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع
بعضها بعضا . فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع إلى كل أهل
بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام وبعث عبد الرحمن بن عوف
والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس فدفموا إلى أهل
كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأثدوا بلحمه ويحتدوا
بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره
فوسع الله بذلك على الناس فلما رأى ذلك عمر رضي الله عنه حمد الله وكتب
إلى عمرو أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه . فقال
عمر يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد
ألتى في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح
الله مصر وجمعها قوة لهم وجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل
في البحر فهو أسهل لما تريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فإن حملة على
الظهر يبعد ولا تبلغ به ما تريد : فانطلق أنت وأصحابك فتشاروا في ذلك حتى
يعتدل فيه رأيكم : فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر . فثقل
ذلك عليهم وقالوا نخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر فنرى أن تعظم

ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر لا يمتدل ولا يكون ولا نجد
اليه سبيلاً : فرجع عمرو بذلك الى عمر فضحك عمر رضي الله عنه حين رآه
وقال : والذي نفسي بيده (كأنني أنظر اليك يا عمرو والى أصحابك حين أخبرتهم
بما أمرنا به من حفر الخليج فتقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على
أهل مصر فترى ان تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر
لا يمتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلاً : فعجب عمرو من قول عمر وقال :
صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ما ذكرت : فقال عمر (رض)
انطلق بمزيمة مني حتى تجد في ذلك ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه
ان شاء الله تعالى : فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ثم
احتفر الخليج في حاشية الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين فساقه
من النيل الى القلزم (السويس) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه
ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسحي
خليج أمير المؤمنين : ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز
ثم ضيمه الولاية بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع فصار منتهاه الى
ذنب التماسح من ناحية بطحاء القلزم : انتهت رواية بن عبد الحكم
وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقي منه لهذا العهد فأمرت
بطمه من بضع سنين وأصبح الجزء الذي يخترق القاهرة شارعا مد عليه
خط الترامواي ودعي بخط الخليج

وجاء في سبب حفر هذا الخليج روايات أخرى منها ما ذكره أبو
الفداء ان عمرو بن العاص أشار على عمر بفتح خليج البرزخ وهو الذي
يصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فأبى عليه عمر ففتح خوفا

من وصول الروم الى البحر الاحمر ويقال ان خليج البرزخ هذا كان موجودا في عهد البطالسة وأن أثره كان باقيا لهد عمرو بن العاص لهذا أشار على عمر بفتحه فكان رأي عمر ان لا يفتح ونعم ذلك الرأي فان فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق وفي الخطط التوفيقية كلام مشبع عن هذا الخليج والخليج الذي يقال انه كان من قبل فاير جمع اليه من أحب وقد كان عند المصريين عادة قديمة وهي انهم كانوا يحتفلون بزيادة النيل احتفالا عظيما يسمى جبر البحر ويسمى الآن فتح الخليج وكانوا يعملون هذا الاحتفال عند وفاء النيل فكانت من عوائدهم القبيحة فيه ان يلقوا فيه كل سنة بنتاً من الابدان بعد ان يزينوها بالحلي والحلل زعما منهم انه لا يفي لهم الا بهذه الضحية : ويقال ان الامبراطور قسطنطين أبطل هذه العادة في عصره لكن المصريين عادوا اليها بدليل ان مؤرخي العرب ذكروا انها كانت موجودة حين دخول عمرو بن العاص الى مصر فأبطلها هذا بأمر أمير المؤمنين عمرو بن الخطاب

وتحريب الخبر على ما نقله المقرئ عن ابن عبد الحكم ان عمر لما فتح مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنة من أشهر القبط فقالوا له أيها الأمير ان لنيلنا هذا سنة لا يجرى الآبها فقال لهم وما ذلك : قالوا انه اذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر فأرضينا أبوها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل : فقال لهم عمرو ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله :

فأقاموا بؤنة وأيب ومسرى وتوت وهو لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلد فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمرو بن الخطاب بذلك :

فكتب اليه عمران قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك بطاقة فألقها في النيل اذا أتاك كتابي

فلما قدم الكتاب الى عمرو ففتح البطاقة فاذا فيها (من عبد الله أمير المؤمنين الى نيل مصر: أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فנסأل الله الواحد القهار ان يجريك :) فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل الصليب يوم وقدها أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا وقطع السنة السيئة عن مصر: (*)

وكان القبط يزعمون ان النيل لا يزيد إلا اذا احتفلوا له بعيد يسمى عيد الشهيد ولهم تابوت يضعون فيه أصابعا من أصابع اسلافهم الموتي في اليوم الثامن من شهر بشنس أحد الشهور القبطية فيلقونه في النيل نأ بطل ذلك العيد الامير بيرس الجاشنكير لما كان يقع فيه من الفتن والانفاس في الفجور ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية وقال أظن ان هذا العيد هو العادة التي أبطلها عمرو بن العاص: أي هذا العيد تخلف عن تلك العادة: والذي أدركناه لهذا العهد ان البنت قد استبدل بها صورة مصنوعة من طين تأتي في البحر يوم الاحتفال بفتح الخليج تسمى دروسة النيل وهذا يدل على صعوبة اقتلاع جذور العوائد القديمة من نفوس البشر لاسيما العوائد الوثنية التي تسربت الى أرباب الاديان الالهية مع شدة تكثير هذه الاديان على أهل تلك العوائد

(*) في هذا الحكاية بحث ونظر راجع تحفة في الجلد الثاني من مجلة المنار (ص ٥٥)

ومن آثاره الجميلة مدة ولايته على مصر توسيع الجباية بالعدل وقسمتها الى ثلاثة أقسام قسم لترميم الجسور وحفر الترع وما يلزم لعمران البلاد وقسم لاعطيات الجند والباقي يرسله الى الخليفة وقد كانت الجباية قبله على عهد المقوقس تبلغ عشرين مليون دينار كما رواه المقرئ في أخبارها اثني عشر مليون كما تقدم الخبر عن ذلك وعن الخلاف فيه ولما رتب الجباية استشار المقوقس فيما كان يفعله وقال له : أنت وليت مصر فبكم تكون عمارتها : فقال بمخصال - تحفر خابجانها وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتها ولا يقبل مطل أهلها ويوفى لهم بالشروط وبدر الارزاق على العمال اثلا يرتشوا وترفع عن أهلها المعاون والهدايا فبذلك تمر ويرجى خراجها : فعمل بذلك وكان يخفف الجباية في السنين التي لا بني فيها النيل وربما كسرهما وذلك للعهد الذي كتبه للمصريين ونصه كما رواه الطبري : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب : وعلى أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصالح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (كذا) وعليه من جنى نصرتهم فان أبى أحد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا من أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صالحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم : على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمهم

المؤمنين : وعلى النوبة الذين استجابوا كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة ؛ شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا الكتاب فلان ١٠٠٠ هـ فدخل اهل مصر في هذا الصالح جميعهم وعليه مشى عمرو بن العاص في تقسيم الجباية ومراعاة حال النبل في الزيادة والنقص وربما اضطار احيانا الى كسر الخراج فكان عمر يظن فيه الظنون ولما استبطأه مرة في الخراج كتب اليه ما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص : سلام الله عليك : أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر . وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم . فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب . وأتد أكثر في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر (فلة) ورجوت ان تفيق فترفع اليّ ذلك : فاذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي : لست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة . وإن كنت مضيعاً نطعاً إن الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان أبلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انه لم يمنك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك

وتلفف اتخذوك كهفا . وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله ان يؤخذ منك الحق وتُعطاه . فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجأج فانه قد برح الخفاء والسلام^(١)
فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص
سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو: أما بعد فقد بلغني كتاب
أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل
الفراغة قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الاسلام
ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر . لانهم كانوا على
كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منّا مذ كان الاسلام . وذكرت
ان النهر يخرج الدر فلبثها حلبا قطع درها . وأكثر في كتابك وأثبت
وعرضت وتربت . وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت
لعمري بالمقطعات المقدمات . ولقد كان لك فيه من الصواب من القول
رصين صارم بليغ صادق . ولقد عاينا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن
بعده فكنا نحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق ائمتنا .
نرى غير ذلك قبيحا والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا .

(١) (تفسير الانفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب) قوله تأتيني بماريض تعباً
بها . المعارض هي التورية بالشيء عن الشيء وتعباً بها أي تظنها مما يعبأ به أي يهتم له
وهي لا شيء عندي وقوله وان كنت مضيعا نظاما . النطع المتشدد بالكلام ، وقوله
ان ابتلى ذلك منك أي امتحن . وقوله توالس وتلفف بمعنى واحد . وقوله الحق
أبلج أي مضى مشرق لا يخفيه التويه وما عنه تلجأج التلجأج التردد في الكلام .
وقوله برح الخفاء برح زال وانكشف

معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجترأ على كل مأثم ، فأمض
 عمالك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك
 الذي لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يا ابن الخطاب لأنا
 حين يراد ذلك مني أشد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما . وما عملت من
 عمل أرى عليه فيه متعلقا . ولا كني حفظت ما لم تحفظ . ولو كنت من
 يهود يثرب مازدت ، يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت عالما بها .
 وكان اللسان بها مني ذلولا . ولكن الله عظم من حقك ما لا يحهل اه
 فكتب اليه عمر رضي الله عنه

من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام اليك فاني أحمد
 اليك الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي
 اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الي بشتيات الطرق وقد علمت اني
 لست أرضى منك إلا بالحق البين لما رجوت من توفير الخراج وحسن
 سياستك فاذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو في المسلمين .
 وعندى ما قد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص
 سلام أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطنني في الخراج
 ويزعم اني أحميد عن الحق وأنكث عن الطريق . واني والله ما أرغب
 عن صالح ما تعلم وان أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلهم فنظرت
 للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من ان نخرق (الخرق ضد الرفق) بهم
 فيصيروا الى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام

ف قيل ان عمر رضي الله عنه كتب اليه أن ابعث اليّ رجلاً قديماً من القبط . فاستخبره عمر رضي الله عنه عن مصر وخراجها قبل الاسلام . فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها وعاملا لا ينظر الى العماره وانما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريد بها إلا لعام واحد : فمرف عمر ما قال القبطي وعلم منه جلية الامر فقبل من عمرو ما كان يعتذر به

ولا يتبادرن الى ذهن القارئ ان إلحاح عمر رضي الله عنه على عمرو بأمر الخراج يريد به اجهاد القبط أو التوصل الى الخراج كيف ما كان الحال معاذ الله ان يخطر هذا لعمر بن الخطاب في بال وانما هو استبطأ الخراج مع عدم وقوفه على حاجة البلاد وعلمه بطمع عمرو فكتب اليه ما كتب وإلا فانه رضي الله عنه كان من أشد الخلفاء حرصاً على الرعية وقياماً على العمران ومحافظة على العهود خصوصاً مع القبط الذين استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم . واليك ما كتبه عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص يستوصيه بالقبط ويأمره بأن يأخذ من الخراج ما يحتاج اليه مما لا بد منه لاصلاح البلاد ويأخذ لنفسه عطاءه ويطي الاعطيات لاربابها وما يفيض يرسله اليه وان لا يأخذ الخراج إلا من حقه وهذا نص الكتاب كما أخرجه ابن سعد عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة قالوا : كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص

أما بعد فاني فرصت لمن قبلي في الديوان (أي فرض العطاء) ولمن ورد علينا في المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه اليك والى البلدان . فانظر من فرصت له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ومن نزل

بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحو مما رأيته فرضت لاشباهه وخذ لنفسك مائتي دينار^(١). فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والانصار. ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك لأنك من عمال المسلمين فألحقك بأرفع ذلك وقد علمت ان مؤثنا تلزمك فوفر الخراج وخذ من حقه ثم عفا عنه بعد جمعه فاذا حصل اليك وجمعه أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج اليه مما لا بد منه. ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فأحمله اليّ واعلم ان ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح^(٢) وما فيها للمسلمين في: تبدأ بمن أثنى عنهم في ثغورهم (أي المرابطين) وأجزأ

(١) لعل هذا الفرض الذي فرضه لعمر هو جريته (مرتبه) على عماله لافرض العطاء اذ ان عمر (رض) كان يجري على العمال جرية هي غير نصيبهم من العطاء فقد ذكر في سراج الملوك ان عمر أجرى على عمار في كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولائه وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه لما يشاء وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجربة: ومن هذا يعلم ان عماله كان لهم جريات على هذه النسبة وهي غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه) وانما نهينا على هذا الامر هنا لاهميته ولانه فاتنا ذكره والتنبيه اليه في سيرة عمر رضي الله عنه.

(٢) قوله ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح يدل على ان مصر فتحت صالحة وان ما فتح غنوة أجرى بعد ذلك مجرى الصلح الذي دخل فيه كل القبط للعهد الذي أخذوه لهم المقوقس وهذا يؤيد ما جاء في كتاب العهد الذي مر معنا ذكره وان عمرو وعمرو بن العاص حفظا للمقوقس العهد وأجرياه له بعد تمام الفتح

(أفضى) عنهم في أعمالهم ثم أقضى ما فضل بعمد ذلك على من سعى الله
(أي في القرآن)

واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في
كتابه « واجعلنا المتقين اماماً » يريد ان يقتدى به . وان معك أهل
ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط
فقال « استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً » ورحمهم ان أم اسماعيل
منهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته
فانا خصمه يوم القيامة » احذر يا عمرو ان يكون رسول الله (ص) لك
خصماً فانه من خصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة
وآنست من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي ورق عظمي فاسأل الله ان
يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لاخلشى لو مات جمل بأقصى عملك
ضياعا ان أسأل عنه اه

لولم يكن لعمر إلا هذا الكتاب لكفاد فضيلة في نفسه وفضلا
على رعيته فكيف وكل أعماله شاهدة على تفرد بالعدل وحسن السيرة
في الرعية ومضاء الفكر في السياسة وشدة الاخذ على أيدي العمال
واليقظة في الامور جليلها وحقيقتها فرضي الله عنه وجزاه عن المسلمين
خير الجزاء

﴿ كلمة ثانية في أهل الذمة ﴾

هذا الكتاب يمثل لما سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة وبين
شدته على العمال في منعهم عن إيذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله

صلى الله عليه وسلم وعملا بأمره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيحتل ان يريد بهم اذى بقول أو فعل ؟ كلا ان العقل والبديهة يرفضان نسبة أى قول أو فعل اليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن اتهان الذمي أو ظلمه .

واذ علم هذا فالذى يدعو الى العجب هو غفلة نقلة الاخبار وروايتها عن مقاصد عمر (رض) التي هي مقاصد الشرع الاسلامي الذي جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جمع المتناقضات من الاخبار وتقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحتها من كاذبها وبدون تروى في النافع والضار منها

كتبنا في الجزء الثاني فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزي في ان عمر تقدم الى أحد عماله بمختم رقاب أهل الذمة بالرصاص^(١) وأبنا ثمة وجه الضعف في هذا الخبر وعجبنا من مثل بن الجوزي كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع انه ليس في الدرجة التي تؤلم النفس اذ لو صح لحمل على قصد سياسي أو ادارى على تعبير المتأخرين يراد به ضبط احصاء أهل الجزية من الذميين لا اتهانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الاسلام كالرومان والفرس الذين ثبت انهم كانوا يضربون على الرعية الجزية كانت هذه العادة متبعة عندهم في احصاء أهل الجزية وقد زاد عجبنا اضعاافا الآن اذ رأينا هذا الخبر في الخطط نقله صاحبها المقرئ عن ابن عبد الحكم بزيادة أحررها ان تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب

(١) المراد بمختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من

الرصاص كما في بعض التواريخ

رضي الله عنه واذقنا بوهن الرواية الاولى في جانب العقل وهي لأحد حفاظ الحديث فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . واليكها بنصها مع الزيادة التي أوردتها المقرئ قال :

كان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه فكانت فريضة مصر لحفر خالجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً (أي من العمال) منهم الطور والمساحي والاداة يمتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاء . ثم كتب اليه عمر ان تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويمزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف (جمع أكاف وهو البردعة) عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين

فانظر أيها العاقل الى هذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذي يوصى فيه عمرو بن العاص أهل الذمة هل تجد بينهما التماث بالوجهة ؟ أم بينهما من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا في الجزء الثاني ضعف أمثال هذه الاخبار بما فيه الكفاية وانما عدنا اليها الآن لامر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو ان واضعي هذه الاخبار انما ألجأهم لوضعها أمران الامر الاول ان الشئون الادارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط في أكثر الاوقات بأهل الذمة بل استمرت تكتب بلغتهم أيضاً الى عهد عبد الملك بن مروان فكانوا يستطيعون أحياناً على رجال الدولة وأهل المسكاة وربما تخرج منهم أحياناً بعض الفقهاء فوضعوا لهم أمثال تلك الاخبار تنقيصاً لهم وخطاً من مكانهم عند الخلفاء والملوك وإبعاداً

لهم عن مناصب الدولة وانما ألجأهم الى نسبة هذه الاخبار الى عمر كونه
كان رضي الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه نص في الشرع وهذا بلا
ريب يعد من أوائلك الوضاعين تناهياً في ضعف الرأي لا سيما اذا علموا
بأحوال أهل التقى والعدل من الخلفاء ومعاملتهم الجميلة لاهل الذمة كعمر
ابن عبد العزيز ومن حذا في ذلك حذوه من الخلفاء وبالأخص الخلفاء
من بني العباس الذين كان أكثرهم متفقهاً في الدين واقفاً على أخبار السلف
كالنصور والمهدي والرشيد والمأمون وأمثالهم ممن أتى بعدهم فكانوا
يوسدون كثيراً من شؤون الدولة الى أهل الذمة ويقربونهم منهم لا سيما
الاطباء والكتّاب بلا أدنى تخرج في الدين وأي حرج في الدين يمنع من
محاكمة الذميين وعدم ايدائهم بمثل ذلك الامتهان المشين من كلام الوضاعين
ومن وقف على أخبار ماسويه وحنين بن اسحق رأضابهما مع المأمون
والمتموكل يعلم هذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر
فكان القبط أرباب الحكمة العليا عند الخلفاء وكانوا كما نقل المقرئ
يتولون دواوين الخراج ويركبون البغال الفارسة ويتصرفون بأعمال
الدولة بل بلغ بالخلفاء ان كانوا يعطون ألقاب التشريف الخاصة بالعلماء
والملوك وهي الالقاب المضافة الى الدين للاطباء والكتّاب من النصارى
واليهود وما نذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين ابن البوري الكاتب
النصراني) والحكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرها ممن لم تحضرني
أسمائهم الآن :

هذا هو السبب الاول وأما السبب الثاني لوضع تلك الاخبار فمنشأوه
نزوع بعض الامراء الى اجهاد الرعية من مسالمين وذميين بالضرائب ونكت

عهد هؤلاء القديمة ولما لم يروا في الشريعة مخرجا لهم يتوصلون به الى الاستبداد بالرعية وتمحيل الذي فوق ما حدده الشرع من اخراج والجزية كما حملوا المسلم لاسيما والاخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على مالهم من حقوق الذمة والجوار وأنهم أهل ذمة الله وذمة رسوله - مهدوا لاغراضهم السبيل بالايعاز الى بعض مقربيهم بوضع مثل ذلك اخبر مقدمة لاستباحة امتنانهم ثم إجهادهم بالضرائب يدلك عليه ما حدث في عهد الروانيين من الاجترار على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من غير حقها كما ستراه مبسوطا في محله ان شاء الله

على أن سيرة الصحابة ورجال الفتوح في الصدر الاول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الاقوال الواهية حتى انهم افتتحوها بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة ما لا يقوى عليه الحسام ، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الاقوام^(١) وحسبك من أدهم مع أهل الذمة

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم تجنب اذنائهم بالقول أو بالفعل خصوصا عماله يدلك عليه ما ذكره في سراج الموك في حكاية طويلة لا محل لذكره هنا وخلاصتها ان عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن اشيائه ثم قال له عد الى عمالك فقال عمر انشدك الله ان لا تردني الى عملي فاني لا أسلم منه حتى قلت لذمي : أخزأك الله : ولقد خشيت ان يخصني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول (انا حبيبي المظلوم فمن حاجبته حججته) ولكن ائذن لي الى أهلي : فاذن له فاتى أهله الخ الحكاية

فاذا كان مثل عمير بن سعد يستوفي من عمله لكلمة قالها لذمي وخاف ان يخصه رسول الله عليها لانه قال « من ظلم ذميا فانا خصمه يوم القيمة » فهل يسوغ العقل ان يؤذي عمر وعماله الذميين بمثل جز النواصي والركوب على الاكف ونحو ذلك من أنواع الايذاء الذي لا شيء بالنسبة الى قول عمر لذمي : أخزأك الله : فالله انا نبرأ اليك مما كذب الوضاعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم العقل

من الكتبايين أن ما روي عنهم من أخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع أنهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثني العرب قبل الاسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك: الروم: والقبط: مثلاً كأنهم زام الروم. وقاتل القبط ونحوه. يؤبد هذا كتب التاريخ التي نقلت إلينا أخبار الفتوح بالرواية كالطبري وأشباهه، ولو فرض وجود شيء من تلك الالفاظ فيها فإنه نزر يسير وهو من حشو النساخ وأما كتب المتأخرين أو المقلدين فإن أصحابها لم يراعوا فيها مراعاة السلف من الادب وحسن الاداء لما قر في نفوسهم من التعصب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الاسلام لعلم أهل ذلك الصدر ان الاسلام جاء للتأليف والوئام، للتفريق بين الاقوام، وان اختلاف الاديان لا يوجب الفرقة والخصام، لقوله تعالى « اكتم دينكم ولي دين » ولان القرآن نطق بأن أهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى « ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » ولهذا سرّاً رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني في حكاية هرقل مع الفرس وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى « الم غلبت الروم » الآية فلتراجع في محلها

هذا ما أردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين وانما أطلنا الكلام في هذا الباب إظهاراً لبراءة عمر (رض) مما عزي اليه وتنبهاً لاولى النهي من المسلمين الى أن دينهم يأمر بحاسنة الذميين وينهى عن غاشنة الكتبايين وان مرض التعصب الذميم انما طرأت أعراضه على الامة تدريجاً سيما

عقب الحروب الصليبية وان من آثار ذلك التعصب القبيح ما يلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الالهة والعسف من الدول المسيحية التي حكمت بعض الممالك الاسلامية ولم تراعى في حكم المسلمين حقوق الانسانيه ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية . والمسيحية والاسلام يبرآن الى الله من ظلم البشر بعضهم لبعض ولكن ما الحياة والانسان مهترقت مداركه وسمى عقله فانه لا يزال يتقاصر دون الوصول الى مرتبة العلم الكامل الذي يحمل البشر كلهم بالاضافة الى وجوب التعاون والاجتماع سواء ، وان اختلفوا في المذاهب والاهواء ، إذ كل امرئ مسؤول عن اعتقاده عند الله . وأنه سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها . ولكن : انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور :

(عود لحبر عمرو)

لما تم لعمر بن العاص افتتاح مصر وكتب الى أمير المؤمنين يخبره بذلك . كتب اليه كتابا يشكره فيه ويقول له أن صف لي حال مصر فكتب اليه ما نصه

ورد اليّ كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أغفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر . له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانين . فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض إلا في صغار المراكب .

وخفاف القوارب. وزوارق كائنهم الخائل، أو ورق الاصائل، فاذا تكامل في زيادته نقص على عتبه كأول مابداً في جريته، وطمى في رده، فعند ذلك تخرج ملة محقورة، وذمة مخقورة،^(١) يحرقون بطون الارض، ويبدرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لقيهم ماسعوا من كدهم، فماله عنهم بغير جدتهم، فاذا أحرق الزرع وأشرق سقاه النداء. وغذاؤه من تحت الثرى. فبينما مصر يا أمير المؤمنين أولؤة بيضاء، فاذا هي غبرة سوداء، فاذا هي زمردة خضراء، فاذا هي ديباجة زررقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء، والذي يصلح هذه البلاد ويقر قاطناتها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها، ولا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فاذا تقرر الحال مع العمال، على هذه الاحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله يوفق الى حسن الحال،

استقر أمر عمرو بن العاص في مصر ونال من السلطان عليها ما كان يتناه فتبسط في المعيشة وتوسع في أمور دنياه فأُنهي الى عمر بن الخطاب انه فشت لعمر و فاشية من خيل ومتاع، ونزعت نفسه الى الراحة والاستمتاع، وهيهات لثله ان يتم له ما أراد ويتقلب على وثير النعم وخليفته يعاني شظف العيش ويقهر النفس على الرضا بالكفاف ويؤدب عماله بأدبه ويحماهم على طريقته تعففا عما بأيدي الناس، واكتفاءً بأجر الصبر والتماساً لرضا الله والرعية

روى البلاذري عن عبد الله بن المبارك قال: كان عمر بن الخطاب

(١) قوله ملة محقورة وذمة مخقورة يدناك على ما كان يلاقيه فلاحو مصر من

الجور والاهانة في دولة الروم

يكتب أموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم فكتب الى عمرو بن العاص « انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر »

فكتب اليه عمرو « ان أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نصيد فضلاً عن ما نحتاج اليه لنفقتنا »

فكتب اليه « اني قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك اليّ كتاب من أفلته الاخذ بالحق . وقد سوّيت بك ظناً . وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك . مالك فاطمه طلعةً واخرج اليه ما يطالبك . وأعفه من الغلظة عليك فانه برح الخفاء » فقاسمه ماله

لم يسمع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته ، وبعده عن أمير المؤمنين ودرته ، الاّ الخضوع لما أمره به ومقاسمته بن مسلمة ماله ذلك لانه يعلم منه الجذ في القول وقد قال له في كتابه « وأعفه من الغلظة عليك » فانه لو لم يقاسمه راضياً لقاسمه مكرهاً حين لا ينفعه عقله ودهاؤه ولا يشفع له ماله ولا جنده . فله ما أعظم ذلك الرجل الكبير فعلاً . وأعلاه في النفوس مكانةً وما أهيبه في القلوب وأرهبه للعمال على ما عرف به من التواضع للرعية والرافة بفقراء الناس

وأخرج البلاذري أيضاً عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد ابن مسلمة عمرو بن العاص قال عمرو : انّ زماناً عاملنا فيه بن حنتمة (يعني عمر) هذه المعاملة لزمان سوء لقد كان العاص يلبس الخبز بكفاف الديباج : فمال محمد : مه لولا زمان بن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت

معتقلاً دنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسؤك بكؤها^(١)
 قال أنشدك الله ان لا تخبر عمر بقولي فان المجالس بالامانة : فقال
 لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حي

هكذا كان يقهر عمر عماله كسعد وعمر و واشباههما ومن هم ؟ هم
 أصحاب الفتح العظيم الذين دوخوا له الممالك وكافوا جنود فارس والروم .
 وانما كان يريد بهذه المعاملة ترويض نفوسهم على الطاعة وترك الادلال
 بالفتح والتعجرف على الرعية أو على من دونهم من الناس بما لهم من السابطة
 والفضل في فتوح الممالك والبلدان

فأين هذه السياسة الجميلة ممن صاروا بعده يحكمون العمال بنفوس
 الامة لكامة سوء يتقرب بها وأحدهم اليهم أو بدعة شريرة عرضها عليهم
 لا انتح الممالك والبلدان ، ولا لمساخرة جيوش فارس والرومان ؛ وانما
 تأذن الله بزوال أكثر دول الاسلام لحيدهم عن طريق الشرع في
 سياسة الرعية واطلاقهم يد العمال في معاملة الامة بالعنف والتعسف
 بالحكم جرماً لمنافعهم الذاتية ، وتهاوناً بأمور الرعية ، « وسيعلم الذين ظلموا
 أي منقلب ينقلبون »

هذا وما زال عمرو بن العاص أميراً على مصر حتى ولى الخلافة
 عثمان رضي الله عنه فزله وولاهها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكانت
 ولاية عمرو على مصر نحو خمس سنين ثم وليها في زمن معاوية ولم تطل
 مدة ولايته الثانية وتوفي فيها كما سنذكر ذلك بعد

(١) أي رابطاً بساحة بيتك غزرة يسرك كثرة درها ويسؤك قلته يقال بكأت

الناقة والشاة اذا قل لبنها

هذا ما أحببنا إirاده من الخبر عن فتح مصر وولاية عمرو رضي الله عنه عليها وبقي لنا كلام عن الحالة الاجتماعية في مصر رأينا من الصواب ان نرجئه الى سيرة محمد على باشا آخر من حكموا مصر من المشاهير ليكون الكلام مبتدئا من زمن عمرو ومنتهيا الى هذا العصر فيصير كالسلسلة المتصلة الحلقات آخذاً بمضه برقاب بعض في كل مايتاق بشؤون مصر العمرانية والسياسية والله الموفق والمعين .

— باب —

دهاؤه وأخباره مع عثمان ومعاوية

✽ وكلة في الفتنة ✽

(أخباره مع عثمان)

قبل الكلام على دخول عمرو في فتنة علي ومعاوية رأينا ان لانفعل ما نقلوه عن دخوله في فتنة عثمان بيانا للحق واستيفاءً لأخباره ما كان له منها وما عليه

نقم المسلمون من عثمان رضي الله عنه أشياء ليس هذا محل بسط الكلام عليها وكان أهمها إشاره ذوي قرابته على غيرهم من جلة الصحابة في توليتهم على الاطراف وتسليمهم ازمة الدولة بعد تتبع أمراء الاعمال الأول بالمزل وابعادهم عن مناصب الدولة وكان من جملة من عزلهم عثمان عن الامارة عمرو بن العاص فنقم منه مع من نقم ولو انصف عمرو وكل من نقم من عثمان وانكر عليه تأمير ذوي قرباه ونظروا الى الظروف التي صار اليها في خلافته والاحوال التي اكتنفته في ولايته وما أخرج به

مناظروه لما تقدموا منه عمله ذلك لانه أراد به تثبيت دعائم خلافته بمن يأمن بهم غائلة النزوع الى الفتنة والتوئب على الخلافة تحزباً مع زيد أو انتصاراً لبكر كما سنبسط ذلك فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

عزل عمرو بن العاص عن امارة مصر فجاء الى المدينة فكان عثمان رضي الله عنه يميل الى استشارته في أموره ويضعه موضع الثقة منه حتى انه لما اشتدت عليه الازمة دعاه فيعلن دعاه اليه من ذوي قرابته وعمله واستشارهم فيما يصنع لاطفاء نار الفتنة فكان مما قاله له عمرو بن العاص كما في رواية أبي جعفر الطبري

يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس ببني أمية فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزال ، فإن أبيت فاعزم عزماً ، وأمض قدماً ،

فقال له عثمان : مالك قل فرك أهدا نجد منك : فسكت عمرو حتى تفرقوا ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لانت أكرم علي من ذلك ولكني علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منّا فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود اليك خيراً وأدفع عنك شراً

وفي رواية للطبري أيضاً قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويغري به ولقد خطب عثمان يوماً في آخر خلافته فصاح به عمرو ابن العاص : اتق الله يا عثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها منك فتب الى الله تنب

فناداه عثمان : وانك ههنا يا ابن النابغة قلت والله جبتك منذ نزعتك

وفي رواية له أيضاً قال : كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان وكان يقول : والله ان كنت لأتقي الراعي فأحرّضه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه . فلما سمر الشر بالمدينة خرج الى منزله بفلسطين فينما هو بقصر و معه ابنه عبد الله ومحمد وعندهم سلامة ابن روح الخزامي إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسأله عن عثمان فقال محصور : فقال عمرو : أنا أبو عبد الله * العير يضطرب والمكواة في النار * : ثم مرّ بهم راكب آخر فسأله فقال : قتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبو عبد الله اذا زكأت قرحة أدميتها . فقال سلامة بن روح : يا معشر قريش انما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه : فقال نعم أردنا أن نخرج الحق من حاصرة الباطل ليكون الناس في الامر شرعا سواء

هذا كل ما قيل في شأن دخول عمرو في فتنة عثمان وهذا الخبر الاخير مع ما فيه من الضعف بالنسبة لما تضمنه الخبر الاول وانه يحتاج الى تمحيص فلو صح لدل دلالة صريحة على ان كل ما نتم من عثمان (رض) انما هو ايشاره بني أمية على غيرهم في الاعمال . وقد زعم بعضهم ان عمرو ابن العاص هو الذي حرك المصريين على عثمان ولادليل عليه إذ الذي حرك المصريين في الحقيقة هو محمد بن أبي حذيفة وابن السوداء اليهودي كما سيأتي في محله وما كان لعمرو في هذه الفتنة إلا ما كان لكل الصحابة الذين حضروا قتله وأحسن ما يعتد به عن عمرو هو انه دخل فيما دخل فيه معظم القوم كما كان ذلك في فتنة علي ومعاوية يدلك عليه ما نقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من رواية الواقدي عن شعبة بن الحجاج عن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال . قلت له (أي لسعد) كيف

لم يمنع أصحاب رسول الله (ص) عن عثمان؟ فقال انما قتله أصحاب رسول الله ويريد بهذا أنهم شهدوا قتله ولم يكونوا لقيام من قام عليه كارهين وأما أنهم أرادوا قتله فمأذ الله وانما هم نفعوا منه ما نفع الناس وظنوا أن عثمان اذا اشتد عليه الامر وضايقه المحاصرون له يخضع نفسه من الخلافة فتعود شورى بين الناس وهذا غاية ما كان يطمح اليه المهاجرون الذين هم من أهل الشورى والذين كان اسكل منهم حزب يريد على الخلافة ويرى أنه أحق بها من عثمان ولكن أعجلهم أهل الفتنة وطرار الآفاق الذين حاصروا عثمان وبادروا الى قتله لما داموا أنهم ان عادوا الى ديارهم مع بقاء الخليفة عثمان حياً أخذوا للاحالة وهذا بحث طويل لا محل له هنا بل سنعود اليه ونتبسط فيه من كل وجوهه في سيرة عثمان ان شاء الله

— أخباره مع معاوية —

(وكلمة في الفتنة)

ذكرنا في سيرة سعد بن أبي وقاص في التمهيد الذي مهدناه لآخبار الفتنة ان هذه الفتنة سياسية لادينية وأن سعداً اعتزلها حبا بالسلامة وقد جازاه على ذلك جماعة من الصحابة كابن عمر ومحمد بن مسامة والمغيرة بن شعبة وعبادة بن الصامت ونفر غيرهم . واعلم ان اعتزال هؤلاء وطلبهم للسلامة انما كان لعدم تحققهم الحق من غيرهم من فريق المتخاصمين اذ القوم كلهم مسامون وفي الفريقين من كبار الصحابة والمهاجرين وجلة الانصار من لم يشك في دينهم أو يقدر في عدالتهم والحكم على فريق منهم أنه على غير الحق حكم على الآخر إذ الكل متساوون في الاسلام

متكافون بالصحبة وان امتاز بعضهم عن بعض بالسابقة أو قدم الهجرة وكل ما زعمه بعض الفرق الاسلامية كالمترلة والشيمة من أن الفريق الذي حارب علياً رضي الله عنه من الهالكين على رأي الفرقة الأولى ومن الكافرين على رأي الفرقة الثانية مجازفة وافتئات على الدين وتكفير لكل المسلمين يومئذ لانهم كلهم دخلوا في الفتنة فاذا صحح كما يزعمون ان الفتنة لها مساس بالدين شمل زعم أولئك الفرق كل المسلمين وهم أبرأ الى الله مما يزعمون

والعجيب في أولئك الفرق أن يتنازع أشخاص من الصحابة على رئاسة ذنوية بل ولو دينية أيضاً يرى كل شخص منهم أنه الأخرى بها والايق للقيام بأعبائها فيجعلون ذلك التنازع تنازعا دينيا كأنه تنازع على ان الله واحد أو أكثرينجو من آمن بوحدايته ويهلك من قال بتعددده فيرسخ في أذهانهم تكفير نصف المسلمين يومئذ مع أن في الحديث (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بالكفر) فما بالك بمن يكفر نصف المسلمين لا لأنهم أشركوا بالله أو نبذوا الدين بل لأنهم نصروا طالب رئاسة على آخر يطلبها مثله وكلُّ يرى صاحبه أولى بها لمزايا عرفت فيه ليست في الآخر نعم ان تلك الفرق أن يقولوا أن علياً رضي الله عنه حقيق بأمره المؤمنين لسابقته وقرابته وورعه وتقواه ولما شاءوا من الاوصاف الفاضلة التي هو بها جدير رضي الله عنه وأرضاه ولكن ليس لهم أن يقولوا ان من نازعوه على الخلافة وأنصارهم كفار . لم ذا ؟ لانهم نازعوه عليها . مع أنه ليس هناك أمر إلهي بتخصيص الخلافة في شخص بعينه بل ولا أمر نبوي أيضاً وكل ما قيل وروي عن النبي (ص) في شأن علي وآله نصاً

ووصاية كما يقولون فقد ثبت انه موضوع وان حاول مؤسسوا مذهب الشيعة ورفموا دعائمه أثباته بوجوه كلها مردودة وحسبك شاهداً على ذلك ان الصحابة لما ناقشوا الانصار يوم السقيفة لم يحتجوا عليهم إلا بحديث (الأئمة من قريش) ولما ناقش عليّ أبا بكر وعمر لم يحتج عليهما بالوصاية بل بالسابقة والتقاربة ثم أجمعوا جميعهم وعليّ معهم على الرضى بخلافة أبي بكر ولو كان هناك نص على عليّ لعلم لديهم جميعهم يومئذ ولم يعدلوا بدليٍّ أحداً إلا اذا اعتقد الشيعة بوجود النص وان الصحابة كلهم كتموه وخالفوا أمر النبي (ص) لانهم غير مؤمنين إلاّ عليّ بن أبي طالب فانه كان وحده كل المسلمين . وما نخال ان الجهل يبلغ بأحد الى مثل هذا الاعتقاد لذا لم يعتقد مثله إلا طائفة حقيرة منهم ظهرت في المغرب تنسب الى الطائفة النحلية قد بلغ أفرادها الغاية من خسة الطينة والبعد عن تحكيم العقل ومحاسبة الوجدان فالتحقوا بسائمة البشر الذين قالوا بنبوّة عليّ والوهيته وغير ذلك من الهذيان

وبالجملة فن الفضول في أمر مضى زمنه ، وخلاف انقضى أمره بين المختلفين فيه في عصرهم ، ان ينقسم الناس لأجله شيعة الى هذا اليوم . وانما كان يصلح تشيع كل فريق لصاحبه حين مطالبته بالخلافة تعضيدا له وأخذاً بنصره وتوصلا لامرته . وأما التشيع لفرق دون فريق الى هذا اليوم فأبي فائدة فيه للتشيع له غير ما يقوله الامامية من وجوب الخلافة لآل عليّ للنص أو العصمة وهم غير مغنيين عن هذا الوجوب شيئا إلا ما كان في بعض العصور الاسلامية من قيام الدعاة لآل عليّ يتذرعون بذلك

للسيادة والملك أو الالتفاف حول صاحب الدولة^(١) وناهيك بما نشأ عن هذه

(١) هذا القول يحتاج كما لا يخفى الى دليل لهذا عزمنا على ان نفرده فصلًا مخصوصًا في سيرة علي رضي الله عنه تأتي به على ملخص تاريخ أكثر زعماء الشيعة والقائمين بهذه الدعوة طلبًا للدنيا أو للاستئثار بالرياسة دون صاحب الدعوة وأما قلنا الزعماء لان العبرة في تاريخ تلك النحل الامامية للرؤساء القائمين بها لا لعامة أهلها اذ هؤلاء أتباع الرؤساء وأسرى التقليد في كل نخلة يدينون بما دان به أبائهم كيف ما كان . على ان كلامنا في هذا الفصل جميعه اجمالي أتى معنا استطرادًا والتفصيل لغير هذا المقام فلا تظن ان ما كتبناه هنا عام يشمل سائر معتقدات الشيعة كلا فان من هؤلاء أقواما على جانب من الاعتدال في مذاهبهم ومنهم زيدية اليمن وأكثر المعتزلة ومن جارا هم في القول بجواز امامة المفضول مع وجود الفاضل وبناء مذهب الامامة على أساس معقول لا يدعو الى كل هذا التباين بين الشيعة وأهل السنة ولا يوجب وجود البغضاء بين المسلمين على اني أعتقد ان أكثر عقلاء الشيعة والمستبشرين بنور العلم والحكمة ولا سيما خاصة أمة الفرس منهم ينكرون على الغلاة أشد الانكار ويتأفقون من ذلك الحائط والخطب الذي مزق أحشاء الاسلام وكل من شمت منه رائحة الاعتدال من عقلائهم وفاتحته بحال المسلمين وما آل اليه أمرهم من جراء هذه المذاهب الداعية الى الفرقة والشقاق الباعثة على تهكم الغير لم ينكر علي هذا القول بل أظهر من الألم من سوء هذا التعصب الاعمى والجهل مثلما أحس به أنا وكل من عنده شعور ولو قليلا بخطر مصير صار اليه المسلمون بازاء الأمم الاخرى لنضديعهم أيام مجدهم وابان شباب دولتهم بمثل هذه السفاسف التي ليست على شيء من الدين والحق حتى شغلهم هذه الامور عن كل شاغل فاسترسلوا في تيه الغفلة عما يكون من مجد الامم وسعادتها ولم ينتبهوا من هذه الغفلة حتى أخذتهم صيحة المغرب من كل مكان وسافت عليهم جيوش العلم والاختراع وسدت دونهم منافذ النجاة من خطر الاستعباد لأمم المغرب الراقية التي عرف أفرادها قيمة العقل فاستخدموه فيما ينفع الانسان ويبسط لهم جناح السلطان فاللهم ألف بين قلوبنا واهلنا الرشد الى طريق سعادتنا واهدنا لتوحيد كلمتنا والعمل بما فيه صون جامعتنا من شوائب الجهل ومصائب الخرافات والالهام وحسبنا من جزائلك العادل أن صرنا وراء الامم ، وأشرقنا على هوة العدم ، والياد بالله

الدعوة من تفريق المسلمين وسفك دماء الناس وما كان فوق هذا من غلوفريق كبير في آل عليّ حتى جعلوه وآله آلهة تعبد من دون الله كالخرمية والبنانية والاسماعيلية أو الباطنية وغيرهم من الفرق الكثيرة التي بلغ ببعضها الجهل والتناهي في ضعف العقول ان قالوا ان رؤية الامام وحدها كافية لاسقاط الفرائض واستباحوا بهذا الاعتقاد كل محرم كما سيأتي الخبر عن هذا فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

كل هذه الوثنية والابتداع والبلاء العظيم نشأ عن التشيع ومذهب القائلين بامامة آل عليّ . وعن ماذا نشأ ذا ؟ عن منازعة أشخاص على امارة المؤمنين أو رئاسة الدولة قد لاقوا ربهم ومضى زمنهم وانتهى أمر خلافتهم ولم ينته بين المسلمين سوء الفهم والتشيع والانقسام الى هذا اليوم حتى صاروا هذا بسنيته وذلك بتشيعه والآخر بطريقته كالسماك بعضهم عدوّ بعض يسطوقويهم على الضعيف وربما اغتفر لهم ذلك الخصام والانقسام بالنسبة لغابر الزمان ولكن ما رأي الأمة الآن وقد فرحت المغرب فاه لياتهم القوي والضعيف ويأتي على الآكل والمأكول مادام الكل في الفرقة والخصام مسترسلين يحملون معاول الخلاف لهدم بنيان مجدهم ووحدتهم باسم الدين والدين بري مما يعملون

اذا تقرر هذا فقد علمت انه نتج مما تقدم أمور يذنبني النظر فيها وهي :

(١) ان مشكلة الخلاف على الخلافة في ذلك العصر مشكلة سياسية

باعتبار ان الخلافة رئاسة دنيوية (كما قدمنا في صدر الجزء الاول) واجبة

عقلا لرعاية مصالح البشر الدنيوية

(٢) ان الذي دعا فرق الشيعة الى إصاقتها بالدين وجعلها واجبة دينا

باعتبار انها ركن من أركان الدين انما هي السياسة نفسها وهي ارادة تفويض هذه الرئاسة لشخص يرون ان لهم عليه حق النصرة ويقولون انه أهل لادارة مصالح الأمة على محور الشرع أكثر من غيره ولكن لما علموا ان الاهلية لا تنحصر في الحقيقة في شخص بعينه قالوا بالنص والتخصيص أي ان صاحب الشرع نص على علي ثم جرّم ضرورة سوق الامامة الى أولاده الى اعتقاد العصمة في علي وآله تدعيما لدعواهم الباطلة ثم لم يكتف غلاتهم بذلك بل انزلوهم منزلة النبوة تارة والالوهية أخرى وهم رضي الله عنه براء مما يقول الظالمون

(٣) ان كل فريق من الفرق المتحاربة أيام الفتنة معذور باعتبار ان النفر الذين تطلعوا الى الخلافة وانقسم لاجلهم المسلمون انما تنازعوا على أمر ما زال يمتازع عليه الاكفاء من أهل العصبة في كل دولة من الدول وعصر من العصور

(٤) ناكما عذرنا أولئك النفر ينبغي ان نعذر عمرو بن العاص على دخوله في الفتنة لان له أسوة يومئذ بكل المسلمين ولا يؤخذ عليه من ذلك إلا ما صمعه يوم التحكيم وهو وان ادّعى فيما صنع حق الخدمة لمن انحاز اليه وعمل بما تقضي به صفة السياسة والدهاء الموصوف بهما الا انه أوجد من الأمور أموراً أنتجت نتائج كبيرة في مستقبل الأمة . فهو اذا أخذ فانما يؤخذ من هذه الجهة لا من جهة انه كفر وألحد باعائته على علي (رض) كما يتخرص به أولئك المتخرصون . إذ ما كان ليضر علياً بمالأة عمرو عليه لو أحسن شعبيته الطاعة له في حرب معاوية (رض) ويوم اختيار الحكم ولكن لله في هذا شأنه وبالغ

عمرو بن العاص كان من شيوخ قريش ورجلهم في الجاهلية والاسلام وكان له مكانة كبيرة عند المسلمين لخدمته الكبيرة في فتح فلسطين ومصر وطرابلس الغرب وقد رأى ما رأى من قيام المطالبين بالخلافة وتحزب كافة المسلمين لأولئك النفر من قريش فلم يسعه مع حبه للرياسة والتقدم في الامور ما وسع النفر المعتزلين من حب السلامة بل رأى أن انتفاع فريق من أولئك المختلفين برأيه ربما كان فيه تعجيل باطفاء شواظ الفتنة وحسم لمادة الاختلاف الذي أهربق فيه دم الامة . وتربص ريثما انجلت الفتنة الاولى عن قل طلحة والزبير وانحاز الاحزاب كلهم الى علي ومعاوية رضي الله عنهم ما فنظر فرأى علي بن أبي طالب رجل دين وورع لا يعبأ بخدع السياسة ومعارض السياسة ولا يصيب مصاحبه شيئاً من دنياه . وان معاوية رجل ديناً لا يفوته الانتفاع بمثل عمرو بن العاص كما لا يفوت عمرا الانتفاع منه وأخذ الشهرة عليه بل ربما أضمر ان ينازعه الخلافة كما نازع هو علياً عليها اذا أظفره بمطلوبه وانفرد وإياه في الامر كما ستري بعد فأنحاز الى معاوية وكان له من الشأن بعد ما هو معروف وما سندر كهنا ان شاء الله روى ابن عساکر في سبب ارتحال عمرو الى معاوية عن عبد الله ابن الزبير : ان الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعمر بها ^(١) من عمرو بن العاص قال وما زال معتصماً بمكة ايس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل . فلما كانت وقعة الجمل بعث الى ابنه عبد الله ومحمد فقال لهما اني رأيت رأياً ولستما باللذين ترداني ولكن أشيرا علي . اني

(١) وجاءت هذه الكلمة في كل من نسخة مكتبة دمشق ونسخة مكتبة

الجامع الازهر (اعمامها) وهي غير مفهومة كما لا يخفى

رأيت العرب صاروا عادين^(١) يضطربان وانا طارح نفسي بين حراري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة فقال الى أي الفريقين أعمد

فقال له عبد الله ابنه ان كنت لا بد فاعلا فالى علي فقال عمرو : نكلك أمك اني ان أثبت عليا قال لي أنت رجل من المسلمين . وان أثبت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره : فأتى معاوية . وروى ابن عساكر من طريق آخر قال لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليا دعا ابنه عبد الله ومحمدا واستشارهما : فقال له عبد الله : صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنك راض . وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان . ثم صحبت عثمان فقتل وهو عنك راض فأرى ان تلزم بيتك فهو أسلم لدينك :

وقال له محمد أنت شريف من أشرف العرب وناب من أنيابها لا أرى ان تختلف العرب في جسيم أمورها ولا يرى مكانك فقال لعبد الله أما أنت فأشرت علي بما هو خير لي في آخرتي وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنه لذكري ارتحلا : فارتحل الى معاوية وفي رواية ان عليا رضي الله عنه كتب الى معاوية كتابا بعث به مع جرير بن عبد الله البجلي يدعو به الى البيعة فطاول في الجواب ريثما استوثق من أهل الشام ثم استشار بأخيه عتبة بن أبي سفيان فأشار عليه ان استعن بعمر بن العاص فكتب اليه مانصه :

أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط الينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله

في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك فاقبل اذا كرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها ان شاء الله :

فلما قدم الكتاب على عمرو واستشار ابنه عبد الله ومحمدا فإشار عليه الاول بالجلوس والثاني بالخروج الى معاوية فارتحل اليه

فلما قدم اليه دعاه الى جهاد علي ومطالبته بدم عثمان وصنفر له من شأن علي رضي الله عنه فقال : والله يا معاوية ما أنت وعلي حملي بعير ليس لك هجرته ولا سابقة ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه . والله ان له مع ذلك لحظا في الحرب ليس لاحد غيره . ولكني قد تعودت من الله تعالى إحسانا وبلاء جيلافا تجعل لي ان شأيتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرور والخطر :

قال معاوية : حكمك : قال عمرو : مصر طعمة : فتملك معاوية وقال له : أبا عبد الله أما تعلم ان مصر مثل العراق : « يريد ان العراق بيد علي ومصر بيد عمرو فإذا يبق له » قال عمرو : بلى ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك وانما كانت لك اذا غلبت عليا على العراق :

وافترقا فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية : أما ترضى ان تشري عمرا بمصر ان هي صنعت لك : وبات تلك الليلة عند أخيه فأسمعه بالليل أبياتا يقول فيها :

أيها المانع سيفاً لم يهز
انما ملئت على خزٍ وقز

الى ان قال :

واسحب الذئب وبادر فوقها
وانتهزها ان عمرا ينتهز
أعطه مصرا وزده مثلها
انما مصر لمن عزّ فبز

واترك الحرص عليها ضلة واشتب النار لمقرور يكرز^(١)

ان مصرا علمي أو لنا يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع قوله أرسل الى عمرو فأعطاه مصر على ان يعطي عطاءهم وأرزاقهم وما بقي فله . فرجع عمرو الى عبد الله ابنه فقال : يا الله قد أخذنا مصر : فقال وما مصر في سلطان العرب . فقال له : لا أشبع الله بطنك ان لم تشبعك مصر :

وكتب معاوية بمصر كتابا لعمرو أراد ان يكايده حتى اذا أراد الرجوع عن عهده رجع فكتب اليه فيما كتب « على ان لا ينقص - أي عمرو - شرط طاعة » فأدركها عمرو وكتب « على ان لا تنقض طاعة شرطاً » وهو قلب في العبارة بلغ الغاية في اللطف وقلب المقصود الذي قصده معاوية الى ما يقصده عمرو من ان الطاعة لا توجب التخلي عن مصر على ان معاوية لما استقر له الامر حاول الرجوع على عمرو بمصر ثم أصاح بينهما معاوية بن خديج^(٢)

روى ابن عساكر عن أبي عون قال : لما صار الامر كله في يدي معاوية استكثر مصر طعمة لعمرو وما عاش ورأى عمرو ان الامر كله قد صالح به وبسدبيره وعنايته وسعيه فيه وظن ان معاوية سيزيده الشام مع مصر : فلم يفعل معاوية . فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالطا . وتميز الناس وظنوا انه لا يجتمع أمرهما . وكتب بينهما كتابا وشرط فيه شروطا لمعاوية وعمرو

(١) قوله واشتب النار أي أشعلها . وقوله لمقرور يكرز المقرور الذي أصابه البرد ويكرز بمعنى يتقبض (٢) ضبطه بن الاثير في التاريخ بن خديج بالخاء المهملة وجاء في أسد الغابة له أيضا بالخاء المعجمة وفي أكثر كتب الاخبار كذلك

خاصة وللناس عامة وإنّ لعمر و ولاية مصر سبع سنين ، وعلى أنّ على عمرو السمع والطاعة لمعاوية . وتوثاقا وتعاهدا على ذلك وأشهد عليهما به شهودا ثم مضى عمرو بن العاص الى مصر واليا عليها وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين فوالله ما مكث سنين أو ثلاثا حتى مات :

ولا يتبادر الى ذهن القارئ من قوله في هذه الرواية « لما صار الامر كله في يدي معاوية الخ » ان مصر انتهت الى معاوية بعد استصفاء معاوية للخلافة وموت علي والحسن رضي الله عنهما كلا بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان واليا على مصر من قبل علي رضي الله عنه كما ستري بعد

هذا وكان جرير بن عبد الله البجلي ينتظر جواب معاوية ليلي فاستشار معاوية عمرا فيما يصنع فقال ان رد ربيعة على عليّ خطر شديد ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي وهو عدو جرير المرسل اليك فابعث اليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس ان عليّا قتل عثمان . وليكونوا أهل رضى عند شرحبيل . فانها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب وان تعالقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبدا

ففعل معاوية ما أشار به عمرو كما سنذكره في محله ان شاء الله فانرى شرحبيل بحرب عليّ وتم لمعاوية ما أراد من جمع أهل الشام على حربه وكان بمد ذلك ما كان من حرب صفين وغيره مما سيرد في هذا الكتاب ان شاء الله

مهد عمرو لمعاوية بدهائه ما مهد وارتحل معه الى صفين حيث كانت الحرب بين علي ومعاوية فاتى هناك بمكيدتين دانا على عظيم دهائه

وكبير عقله الا انها كانتا كالبركان اذا انفجر ، لا يبقى ولا يذر ، فاما المكيدة الأولى : فهي اشارته برفع المصاحف في وجوه أصحاب عليّ وذلك ان عمرا كان في آخر يوم من أيام صيفين بحيال الاشترفقال لوردان مولاه : أتدري ما مثلي ومثلك ومثل الاشتري : قال لا : قال كالا شقرا ان تقدم عمر وان تأخر عقرائن تأخرت لأضربن عنقك : قال أما والله يا أبا عبد الله لاوردنك حياض الموت صنع يدك على عاتقي : ثم جعل يتقدم ويقول لاوردنك حياض الموت واشتد القتال . فلما رأى عمرو وأمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا الا اجتماعا . ولا يزيدهم الا فرقة : قال نعم : قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم : فان أبي بعضهم ان يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا ان نقبل . فتكون فرقة بينهم . وان قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا الى أجل

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم الله بيننا وبينكم . من لثغور الشام بعد أهله « أي من يحميها من العدو » من لثغور العراق بعد أهله : فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله :

ومن ثم استعرت نار الفتنة بين جند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وألزموه بوضع السلاح على غير رضا منه بما صار بعد ان كادت جنوده تدحر جنود الشام

واما المكيدة الثانية فهي خداعه لابي موسى الاشعري يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه نخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه كما سيرد تفصيل هذه الاخبار فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

اجتهد عمرو بنصرة صاحبه وتأييد جانبه فنجح في مكيدتيه الأولى والثانية لكن ماذا كان من وراء ذلك الأيد؟ وماذا نشأ عن ذلك الكيد؟ ان غاية ما كان يرجوه عمرو بن العاص من وراء المكيدة الأولى ان يقبل دعاءه قوم ويرفضه آخرون فيدب الفشل حيناً في جيش علي بن أبي طالب (ض) يلم في غضونه جيش معاوية شعثه ويعد للكرة عدتها أو يعد عمرو للأمريحياته ويهيئ لعمل آخر أسبابه فجاءه الأمر فوق ما أراد ووقع سهمه وراء الغرض اذ كانت كلمته أشبه بنار وقعت على بارود فالتهب، أو أصابت جسماً فاضطرب، فنزعت من القوم نازعة كأنها كانت في عقل فتشطت، ونعقت ناعقة كأنها كانت في قفص فأفلتت، فنادت الى م تعضنا هذه الحرب بناها، وعلام تأخذنا قريش بجريرتها، وما لنا وللأمراء من عدنان أو قحطان وأمير كل امرء دينه، وحاكمه وجدانه، هلم فلنخرج عن جماعة الأمراء، ولنقتلهم في ليلة ظلماء، ونشير على الأمة كلها غارة شعواء، فما ان تفي معنا الى كتاب الله وأما ان تموت شهداء هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا فتنه وضراً على علي وأصحابه، ومعاوية واحزابه، ومروان وجنده، وعبد الملك وكيده، والخلفاء من بعدهم. صبغوا أديم الارض بدماء المسلمين، وكدروا صفاء الدول عدداً طويلاً من السنين، ولولا غلو في معتقدهم، واغراب في بوادر السنتهم، وتطرف في مذهبهم، استلحموا به الناس قتلاً وحراباً لالتف الناس لفهم، واخذوا جميعاً اخذهم، فاستأصلوا جذور الارستقراطية من اعماق الوجود، وقلبوا أوضاع الدول واسكن أكلتهم الحروب، وفرق جمعهم خلفاء، واضعفهم الشذوذ في

الاعتقاد ، فلم يصلوا الى مبتغاهم وضاع أثرهم ^(١) بعد ان ضاع تبعهم الالم الا أثرا في النفوس تركوه ، وطريقا لحرية القول مهدوه ، فذب في الامة من ذلك اليوم ديب الجدل لكن في الدين ، وحُيِّب اليهم الانطلاق لكن عن قيود الوحدة في المشرب والفكر ، والكلام على هذا نستوفيه في غير هذا المحل ان شاء الله

هذا ما انتجته مكيدة عمرو والاولى ولو علم بمثل هذه النتيجة لما فعل (واما المكيدة الثانية) فحسبها ان حولت قواعد الخلافة الشرعية الى الملك العضوض والشورى ، الى المغالبة ، والاختيار الى الوراثية ، ولو استقرت الخلافة لابن أبي طالب رضي الله عنه بعد اذ ذهب مناظروه من اقبال قريش لما بقي للمغالبة بعده أثر لان النفر الذين كان لهم السابقة والتقدم على الناس والنزوع الى تلك الرياسة العظمى وكان الناس يساقون معهم طوعا بحكم التقدم والشرف والسابقة قضوا ولم يك يبق بعد ذلك للناس وجهة يتوجهون اليها الا اختيار السابقين في الاهلية لرياسة الامة وكانت رسخت ليومئذ في نفوس الامة مبادي الشورى ونمت فيهم ملكة الاستعداد لوضع قواعد الحكم الديموقراطي على أساس متين فاستحال ان تدكه أيدي المتغلبين على الملك ، الطامعين في استعباد الناس ، الملك طرفان مطلق ومقيّد فتنازعهما علي ومعاوية فكان علي آخر

(١) ان الحوارج تفرقوا في مذاهبهم السياسية والدينية فرقاشى لم يبق منهم الى هذا العهد الا فرقة واحدة تسمى الاباضية ويوجد منها ناس على شطوط البلاد العربية مما يلي المحيط الهندي وناس في زنجبار ومثاهم في بلاد تونس والجزائر تغيرت مذاهبهم بتغير الزمان وتطاوله

الامراء المقيدين ، ومعاوية أول الامراء المطلقين ، ومع ما عرف عن الثاني من الحلم وحسن السياسة وكف يد الظلم التي يبسطها عادة الرؤساء المطلقون فإن هذا لم يغن الامة شيئا عن خلافة علي بن أبي طالب التي كانت أحب الى الامة وأسد سبيلا في مستقبل الايام للخلافة الشرعية وضم عقد الرعية كافة في سلك واحد تتوحد فيه مشاربهم السياسية فينقطع دابر النازعين الى الملك من غير ذوي الالهية ، وينحسم أصل النزاع على الساطان أو التساط على الرعية ، فيكون الناس أمة واحدة تخضع لقانون واحد وهيئات للمسلمين ذلك بعد مكيدة عمرو وهيئات والكلام على هذا طويل سنفصله فيما هوأت

قلنا فيما تقدم ان عمرو بن العاص انما كاد ما كاد وفاءً بهده مع معاوية لا ينظر الى ما تصير اليه الامور في مستقبل السنين بل ينظر الى قضاء لبانة عرضت له والاعمال التي يترتب عليها من النتائج العظمى ما ترتب على عمل عمرو ومما لآته لمعاوية هي أمور مخبوءة في باطن الايام يتبع بعضها بعضها في الظهور وقد لا تظهر بمثل احتكاك عمرو وأوشد منه أيضا فلا ينبغي الاغراق في مؤاخذه عمرو بن العاص مادامت تلك النتائج غير مقصودة له بالذات وانما جاءت بالعرض لا سيما وانه ربما كان يرمي الى غرض آخر من مما لآته لمعاوية وهو مصير الخلافة اليه اذا قضى علي ومعاوية رضي الله عنهما في تلك الحرب . يدلك عليه تقريره بمعاوية في كثير من المواضع يطروح بنفسه الى الهلاك

ومنها تقريره له في مبارزة علي بن أبي طالب في وقعة صفين وتحرير الخبر ان علي بن أبي طالب (رض) نادى معاوية : علام يقتل الناس بيننا

هلم احاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الامور :

فقال له عمرو : أنصفك : قال معاوية : ما أنصفت انك لتعلم انه لم يبرز اليه أحد الا قتله : فقال له عمرو : ما يحسن بك ترك مبارزته : فقال له معاوية : طمعت بها « أي الخلافة » بعدي

ومنها اغراؤه له بقتل أسرى صفين وقد كان عند علي بن أبي طالب أسرى أطلقهم في تلك الساعة فجاءوا الى معاوية وان عمرأ ليكلمه في قتل أسراه : فقال له معاوية لو أطعناك في هؤلاء الاسارى لوقعنا في قبيح من الامر

ومنها اغراؤه له بقتال قيس بن سعد بن عبادة بعد تنازل الحسن له عن الخلافة وقد كان قيس من شيعة علي ومعه جيش كشف كلهم مستقتل خوف الوقوع بعد صلح الحسن في يدي معاوية وكان قيس من أشجع الناس ودهاتهم في وقته فأبى معاوية حربه وأعطاه وأصحابه الامان . ولو حاربه لكان معه على خطر عظيم يعرفه عمرو بن العاص كما عرفه معاوية أيضا فلم يقع فيه

وبالجملة شايع عمرو معاوية وهو يحب لنفسه أكثر مما يحب له وأخذ مصر طعمة منه وكان بعد وقعة صفين والتباس الامور وقع الفشل في المسلمين وظهرت الفوضى في البلاد واختلف الناس على محمد بن أبي بكر في مصر وهو أمير عليها من قبل علي (رض) فاستشار معاوية أصحابه في أخذ مصر فأشاروا عليه بارسال عمرو وكتب الى شيعة عثمان بمصر فأجابه منهم مسامة بن مخلد ومعاوية بن خديج بسرعة الحمل وبعث الامداد فسير عمرأ ومعه عشرة آلاف مقاتل فتلقاه محمد بن أبي بكر بالفين فانهمزم

ثم اختفى في خربة أخذها منها معاوية بن خديج وقتله وصفت مصر لعمرو ابن العاص في خلافة معاوية ولبث أميراً عليها نحو سنتين أو ثلاث وتوفي وهو أمير عليها

ومن أخباره مع معاوية ما رواه ابن عساكر ان معاوية دعا عمرو بن العاص « يوم التحكيم » وهو متحزم عليه ثيابه وسيفه وحوله أخوته وأناس من قريش وقال يا عمرو : ان أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريدك ونحن بك راضون . وقد ضُمنَّ اليك رجل طويل اللسان قليل المدية له بعدُ حظ من دين : فاذا قال فدعه فليقل ثم قل وأوجز . واقطع المفصل ولا تلتقه بكل رأيك . واعلم ان خفي الرأي زيادة في العقل . فان خوفك بأهل العراق نخوفه بأهل الشام . وان خوفك بعليّ نخوفه بمعاوية . وان خوفك بمصر نخوفه باليمن . وان أنك بالفسير فانه بالجلل :

فقال له عمرو يا أمير المؤمنين أنت وعليّ رجال قريش ولم يقل في حربك ما رجوت . ولم تأمن ما خفت : ذكرت ان لعبد الله ديناً وصاحب الدين منصور وايم الله لأبين علكه ولأستخرجن خبيثه ولكن اذا جاءني بالايمان والهجرة ومناقب عليّ فما عسيت ان أقول :

فقال معاوية : قل ما ترى : فقال له عمرو فهل تدعني وما أرى : وخرج مغضباً فقال لاصحابه انما أراد معاوية ان يصغراً بأبا موسى لانه علم اني خادعه فأحب ان يقول : لم يخدع أريباً : فقد كذبه بالخلاف عليه وقال في ذلك شعراً

يشجّني معاوية بن حربٍ كأني للحوادث مستكين
واني عن معاوية غنيٌّ بحمد الله والله المعين

في آيات

فلما بلغ معاوية شعره غضب من ذلك وقال : لولا مسيره كان لي فيه رأي : فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : أما والله ان أمثاله من قريش لكثير ولكنك ألزمت نفسك الحاجة اليه فالزمها الغنى عنه

وأنت ترى من هذا ومما تقدم من أخباره معه انهما كانا متفقين ظاهراً متنافرين باطناً وانّ عمرأ لم يشايع معاوية رضي الله عنه حباً به أو مودة له بل طلبا للرياسة ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً له منه يدلك عليه ما روي ان معاوية قال يوماً لجلسائه : ما أعجب الاشياء : فقال يزيد : أعجب الاشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض لا يدعمه شيء من تحته ولا هو منوط بشيء من فوقه : وقال آخر : حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل ، : وقال آخر أعجب الاشياء لم ير مثله : وقال عمرو ابن العاص : أعجب الاشياء ان المبطل يغلب الحق : (يعرض بعلي ومعاوية) فقال معاوية : بل أعجب الاشياء ان يعطي الانسان ما لا يستحق اذا كان لا يخاف (يعرض بعمر وومصر التي أخذها طعمة) فنفت كل منهما بما في صدره من الآخر وهذا يدل على انّ علياً رضي الله عنه لو تألف عمرأ واستدناه اليه لانتفع به واصدقه الخدمة أكثر منها لمعاوية ولكن اغراق عليّ في حب الفضيلة دعاه الى ترك الحيلة بمثل عمر كما دعاه الى عدم قبول اشارة من أشار عليه بتأليف معاوية وتشبيته على ولاية الشام كما سترى بعد



باب

نبذة من أقواله وأخباره

أقواله

رؤي عمرو بن العاص بمصر وهو على بغلة قد شاب وجهها من الهرم فمیل له: أيها الأمير تركب هذه البغلة : قال: اني لا أملّ دابتي ما حملاني . ولا زوجتي ما أحسنت عشرتي . ولا جليسي ما لم يصرف وجهه عني . وروى ابن عساکر انه قال لابنه يوماً: يا بني امام عادل، خير من مطر وابل، وأسد خطوم، خير من امام ظلوم، وامام ظلوم غشوم، خير من فتنة تدوم، يا بني مزاحمة الاحق خير من مصاحفنه، يا بني زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر، يا بني « استراح من لاعقل له » : فأرسلها مثلاً وروي أيضاً أن عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية : ان الكريم يصول اذا جاع ، واللينيم يصول اذا شبع ، فسد خصاصة (حاجة) الكريم، وأقع اللينيم

وفي رواية أخرى له : قال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين لا تكون بشيء من أمور رعيتك أشد تمداً لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها ، ولطغيان اللينيم حتى تعمل في قمعه ، (ازالته) واستوحش من الكريم الجائع ، ومن اللينيم الشبعان ، فان الكريم يصول اذا جاع ، واللينيم يصول اذا شبع :

وهذا الكلام من بدائع الحكم ومن أسد النصائح وروي أيضاً عن هشام الكلبي عن أبيه قال : قال معاوية

لعمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال من كان رأيهُ راداً لهواه . قال فمن أسخى الناس ؟ قال من بذل دنياه في صلاح دينه . قال فمن أشجع الناس ؟ قال من ردَّ جهله بحلمه :

وعن سفيان بن عيينة . قال قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر . ولكن الذي يعرف خير الشرين

وروى ابن عساکر عن عمرو أنه قال : الرجال ثلاثة فرجل تام . ونصف رجل . ولا شيء ، فأما الرجل التام فالذي يكمل دينه وعقله فإذا أراد أمراً لم يعضه حتى يستشير أهل الرأي والالباب ، فإذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال كذلك مضيه موفقاً . والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فإذا أراد أمراً لم يستشرفيه أحداً وقال أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأبي لرأيه . فيصيب ويخطئ : والذي لا شيء الذي لا دين ولا عقل له ولا يستشير في الأمر . فلا يزال ذلك مخطئاً مدبراً ، والله اني لاستشير في الأمر الذي أردته حتى خدمني وما عليّ بعرض عقولهم وأسمع : وسأله معاوية بن أبي سفيان : ما السرور يا أبا عبد الله ؟ قال الغمرات ثم تجلي « كناية عن الخلاص من الشدة »

وعن سفيان بن عيينة قال قال عمرو بن العاص : ما وضعت عند أحد من الناس سرّاً فأفشاه فلم ته . أنا كنت به أضيق صدراحتي استودعته إياه : ومن غرر أقواله ما نقله صاحب سراج الملوك وهو :

موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة وهو قول حق أجمع عليه الحكماء وأيدته التجارب إلا أنه لا يسأم من كل الوجوه وإنما هو ينطبق على من كان خسيس الفطرة دني النفس

يرتفع من حضيض المهانة بوسائط سافلة وأسباب غير طبيعية فهذا مما بلغ من علو المكنانة فإنه بعيد عن الفضيلة لانه لم يستمسك في ارتفاعه بأسبابها ، ولم يأت البيوت من أبوابها ، فيكون شراً في مبدأ أمره ، شراً في منتهاه ، ففي ارتفاعه شرٌّ على الناس لانه يستعمل نعمة الارتفاع آلة للاضرار بالناس ووسيلة للاستكثار من متاع الحياة الدنيا ولو من غير طريقه المشروعة لهذا نهى الحكماء عن توسيد المناصب العالية في الحكومة للسفلة لئلا يفسد السفلة أمرها ، ويوهنوا بنيانها ، ويرى بعضهم في هذا العصر لهذا السبب ان أحسن الدول حكومة وأضبطها ادارة وأسدها عملاً وأسلمها من آفات الرشا وسوء القصد دولة انكلترا التي مع انها دولة ملكية مقيدة تشبه حكومة الاشراف الارستقراطية لانها قائمة على دعائم الاشراف وأهل الغنى والثروة لا توسد مناصبها العالية الا لاهل البيوتات العريقة بالمجد والامارة وهم القابضون على أزمة الدولة المباشرون لشؤونها العظمى وهذا وان كان يخاف من بعض الوجوه مذاهب الشوموب الديمقراطية والحكومات الشورية الا انه يوافق أصول التجارب وينطبق في كثير من الأحوال على مقاصد الحق والعدل والكلام عليه يحتاج الى بيان وتمحيص وربما نعود إليه في محل آخر ان شاء الله

هذا من جهة من ينطبق عليه قول عمرو بن العاص واما من جهة لا ينطبق عليه فهو الذي يرتفع بأسباب طبيعية ونريد بالطبيعية الاستعداد والجد والعمل لا الطفرة والاتفاق أو التذرع بالوسائط السافلة غير المشروعة فان من يرتقى باستعداد وجدده ويكون بطبعه عالي النفس سليم الفطرة يرتقى بحكم الاستعداد والطفرة من طريق الفضيلة فيكون فاضلاً في مبدأ

أمره فاضلا في منتهاه فلا يستعمل ارتفاعه سلاحا يتهجم به على الناس بل بالعكس يستعمله لمعونة الناس فهذا لا مضره من ارتفاعه بل ارتفاعه ضروري لازم بحكم العقل والعدل فلا يشمل معني قول عمرو ولعله لا يعنيه ولكن باللاسف ان أمثال هذا عددهم قليل ، في كل قبيل ،

خطبة له

رأينا في تاريخ ابن عساكر خطبة نفيسة لعمر بن العاص من أحسن أقواله يوصي بها الناس بالنصد وعدم السرف وحسن معاملة القبط وصرف العناية الى خيل الجند بالقيام على تربيتها وسمنها وغير ذلك من الوصايا الجميلة الثابتة رواها ابن عساكر عن مجير بن داخر المعافري قال :

ركبت انا ووالدي الى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد حم (كذا) النصارى بايام يسيرة فأطأنا الركوع اذ أقبل رجال بأيدهم السياف يؤخرون الناس فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء ؟ قال ياني هؤلاء الشرط . واقام المؤذن الصلاة فقام عمرو ابن العاص على المنبر فرأيت رجلا قصير القامة أدعج أبلج^(١) عليه ثياب موشية (أو موشاة) كأن بها العقيان تنألق^(٢) عليه . وعليه عمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم فسمعه يحض على الزكاة وصلة الرحم وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك يا معشر الناس اياي وخاللا اربعا فأنها تدعو الى انصب بد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العز . اياي وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقليل بعد القال ، في غير درك ولا نوال ، وثم انه لابد من فراغ يأول المرء اليه في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، فمن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد^(٣) والنصيب الأقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه عادلا ، يا معشر الناس

(١) الادعج اسود العين الابلع المضي المشرق (٢) العقيان الذهب الخالص

(٣) أي بالاعتدال

قد تدلت الجوزاء وربكت الشعرى ، واقلمت ^(١) السماء وارتفع الوفاء ، وطالب
 المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السما^٢م ^(٢) وعلى الراعى حسن النظر . فخي^٣
 بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خير^٤ه ولبنه ، ومرافقه وصيده ، وأربوا
 بجيادكم وأسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم ^(٣) من عدوكم وبها تالون
 مغناكم وأثقالكم ، واستوصوا بمن جاورتم من القبط خير^٥اً . وإياي والمؤمنات ^(٤)
 المفسدات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم ، حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله سيفتح عليكم بمصر فاستوصوا
 بقبطها خير^٦اً فان لكم منهم صهر^٧اً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم ونصوا ابصاركم .
 فلا علمن ما أتاني رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ^(٥) وأعلموا اني معترض الحيل
 كاتراض الرجال فمن أهزل فرسه^٨ من غير علة خططه من فريضته قدر ذلك .
 وأعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، ولاشراف قلوبهم
 اليكم ، والى داركم ، معدن الزرع والمال والحير الواسع والبركة التامة . حدثني عمر
 أمير المؤمنين انه سمع رسول الله (ص) يقول (اذا فتح عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً
 كثيفاً فذلك الجنـد خير أجنـاد الارض) فقال له أبو بكر : ولم ذاك يا رسول الله ؟
 قال : (لانهم في رباط الى يوم القيامة) فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم
 واقيموا في ريفكم ما بدا لكم . فإذا يبس الود ، وسحق العود ، وكثر الذباب
 وحض اللبن وصوح ^(٦) البنل وانقطع الورد فخي^٧ على فسحاطكم على بركة الله .
 ولا يقدرن احد منكم على عياله الا ووه تحفة لعيله على ما اطاق من سعيته أو
 عمرته اه

(١) واقلمت السماء اي كفت وهو كناية عن انقطاع المطر (٢) كذا في الاصل
 ولعلها السوامم وهي الماشية (٣) الجنة هي الوقاية (٤) الدواهر (٥) جواب قسم محذوف
 اكـد بالنون انتميلة وما مصدرية اي فوالله لآلمن آتيان رجل موصوف بما ذكر وفي
 طيه من الترهيب البليغ ما لا يخفى وقد بين بعد جزء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل
 فرسه الخ (٦) صوح اي يبس اعلاه



﴿ أخباره ﴾

(من أخباره في حسن الخلق) مارواه ابن عساكر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر قال صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين طريقاً ولا أحلم جليساً منه :

وعن قبيصة أيضاً : قال صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلاً أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أحسن مدارة منه ، وصحبت طاحنة بن عبيد الله فما رأيت رجلاً أعطى لجزيل من غير مسئلة منه ،

وصحبت معاوية بن أبي سفيان فما رأيت رجلاً أثقل حملاً منه وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين (أو قال أنصع) طريقاً منه ولا أكرم جليساً ولا أشبه سريرة بملاية منه وصحبت المغيرة بن شعبه فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالكر خرج من أبوابها كلها :

ونادت أمراته مرة جارية لها فابطأت فقالت يا زانية : فقال لها عمرو أو رأيتها تزني ؟ قالت لا . قال لتضربن بها يوم النسيئة سبعين سوطاً : فطلبت من الجارية العفو فقال يصح العفو إذا اعتقتها فاعتقتها

(ومن أخباره) التي تدل على علمه وتعمقه وبعده عن الاوهام مارواه ابن عساكر عن موسى بن علي قال سمعت أبي قال : كنت مع عمرو بن العاص بالاسكندرية فأنكسف القمر فاصبحنا مع عمرو فقال له رجل من القوم لقد حدثنا شيطان هذه المدينة ان القمر سيكسف من الليلة : فقال رجل من الصحابة كذب عدو الله هذا . هم علموا ما في الارض فما علمهم ما في

السما : قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له : انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون : ثم قرأ الآية (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) إلى آخر الآية

ولا شك أن هذا الدليل الكتابي يفحم الرجل بل وينبه كل غافل جاهل بسنن الله وحكمة الخلق ان الله تعالى لم يحجب عن العقل شيئاً من أسرار الوجود ولم يحرم على الانسان أن يتناول بالبحث والنظر ما شاء من مجالي الطبيعة وأرشده الى أن الغيب الذي يعلمه الله وحده هو غير ما يتوهمه العقل أحياناً عند تضائله عن إدراك الشيء وضعفه عن الوصول اليه وحبذا لو تنبه الى حكمة الله هذه الذين يقولون هذا حلال وهذا حرام ويحولون بين الرء وعقله بغياً من عند أنفسهم وتحكماً في الدين وضرراً للأمة عن الاخذ بالعلوم النافعة التي قام بها الآن مجد الأئمة وأصبح المحرومون منها على وشك العدم وليس بمد شاعداً اليان برهان

(ومن أخباره) مارواه صاحب الاغانى قال حضرت وفود الانصار باب معاوية بن أبي سفيان نخرج اليهم حاجبه أبو ذرة فقالوا له استأذن للانصار فدخل اليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد القوم الى أنسابهم . فقال « أي الحاجب » هي كلمة ان مضت عرتهم ونقصتهم وإلا فهذا الاسم راجع اليهم : فقال له « أي عمرو » أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل . فقالها الحاجب . فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الانصار . فنظر معاوية الى عمرو ونظر منكر فقال له باعدت جداً . فقال اخرج فقل من كان ههنا

من الاوس والخزرج فليدخل : فخرج فقال لها فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصاري وهو يقول :

يا سعد لا تجب الدماء فما لنا نسب منجيب به سوى الانصار
نسب تخيّر الله لقومنا أثقل به نسباً الى الكفار
ان الذين ثووا بسدر منكم يوم القليب هم وقود النار
فقال معاوية لعمرو : قد كنا لأغنياء عن هذا اه

ولا ندرى ان كان أراد عمرو بهذا المباحة بين معاوية وبين الانصار اتماماً لمقاصده السياسية في إغراء مثل الانصار بمعاوية أو هو يريد الخط من قدر الانصار فقط لانهم شايعوا علي بن أبي طالب أيام الفتنة خلا النعمان بن بشير فإنه كان من شيعة معاوية يومئذ

(ومن أخباره في استعطاف الخاطر والاعتذار) ما رواه محمد بن سعيد عن ابراهيم بن حريط ونفله في العقد قال قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس بعد قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ان هذا الامر الذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وقد بلغ الامر بنا وبكم الى ما ترى وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبراً ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكننا نقول ليتها لم تكن كانت فانظر فيما بقي بغير ماضى فانك رأس هذا الامر بعد علي فانك أمير مطاع ومأمور مطيع ومشاور مأمون وأنت هو :

وليس أحسن من هذا الكلام تملصاً واعتذاراً ولا أبلغ منه في رأب الصدع وجمع القلوب . وقد نقل في العقد خبراً آخر عن عمرو وابن عباس فيه من التهاور والسباب ما يدل على وضعه فلم نشأ نقله أدبا مع أولئك الرجال (ومن أخباره في التقي والانابة) ما رواه ابن عساكر عن عمرو بن

عليه وسلم يقول « ان فصلا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر » :
وروي عن ربيعة بن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي
بالليل وهو يبكي ويقول : اللهم آتيت عمراً مالا فان كان أحب اليك ان
تسلم عمرا ماله ولا تعذبه بالنار فاسلمه ماله . وانك آتيت عمرا أولادا فان
كان أحب اليك ان تشكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فاشكله ولده . وانك
آتيت عمرا سلطانا فان كان أحب اليك ان تنزع منه سلطانه ولا تعذبه
بالنار فانزع منه سلطانه .

(وفاته وولده)

(وفاته وكلمة مجملة فيه)

قضى عمرو بن العاص حياته كلها بالجد وطلب العلاء كما رأيت فما قصد
غاية الا بلغها ولم يبال بالعقبة تقوم دونها وكان له بين ذلك هنات تغتفر له
في جانب جهاده العظيم في فتوح مصر وغيرها ولا يلام على شيء من أمور
الفتنة التي انغمست فيها قریش كلها وساقوا الأمة اليها الا بما يلام به سائرهم
وانما هو سبقهم باعماله الكبار بالاضافة الى شهرته بالدهاء وحبه للظهور
ومهما ترتب على اعماله تلك من النتائج في مستقبل الدولة فانه غير متصود
له بالذات كما أبنا ذلك فالعدل والحق يقضيان على من عرف تاريخ الرجل
ان يتمر له بثبات الجاش وقوة الارادة وصدق العزيمة والرأي وانه من
رجال الاسلام العظام وحسبه انه كان من اعوان عمر بن الخطاب وامرائه
الكبار وعمر رضي الله عنه لا يضع ثقته بغير الاكفاء كما هو معروف عنه ونحن

لأنشك كما لا يشك عاقل معناه في أن مما لأنه على علي بن أبي طالب إنما كانت لأعراض هذا عنه ولورغب فيه لوجد منه من صدق الخدمة وجميل الصحبة ما وجدته عمر ومعاوية وإنما كان علي رضي الله عنه قليل العناية بأمثال عمرو من رجال السياسة أولاً لثقتهم من نفسه وثانياً لكونه يرى سلوك السبيل السوي في القول والعمل خير صاحب ومعين وهو اعتقاد حق لا يعتقد غيره من كان مثل علي بن أبي طالب وفي مرتبته من الفضيلة لكنه رضي الله عنه لم ينظر إلى ما اكتنفه من الأحوال وما أحاط به من الدسائس لاسيما وإن البيئة في وقته صارت غيرها في زمن أبي بكر وعمر ومع ذلك فقد كانا يسيران سير الوجل ويدفمان في كل وجهة صاحبها ويتألفان قلوب الرجال الذين يشك في صدقهم وصادقتهم كما تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب المنافقين مع انهم من اعداء الدين

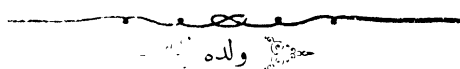
وبالجملة فعمر وبن العاص يعد على حسن بلائه في الاسلام وسلامة يقينه من دهاة الامة في عصره وكبار رجالها الذين افتتحو الممالك ورفعوا منار الدولة لاسيما وأنه كان على جانب من التقى لا ينكر على مثله كما تقدم وكان شديد الرهبة من الله والخوف مما بعد الموت كما يظهر ذلك من أقواله التي فاه بها قبيل وفاته رحمه الله ورضي عنه

وروي ابن عساکر عن ابن شماسه المهري قال : حضرنا عمر وبن العاص وهو في ساعة الموت وولى وجهه الى الحائط وجعل يبكي طويلا فقال له ابنه : ما يبكيك أما بشرك رسول الله (ص) بكذا أما بشرك رسول الله بكذا ؟ قال : ثم أقبل بوجهه فقال : ان أفضل ما يعد عليّ شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . اني قد رأيتني على اطباق ثلاثة : لقد رأيتني وما أحد

من الناس أبغض إليّ من رسول الله (ص) ولا أحب إليّ ان أكون
استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال كنت من أهل النار ، فلما
جمل الله الاسلام في قلبي أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنلت
يارسول ابسط يدك لا بايعك فبسط يمينه فقبضت يدي ، فقال «مالك يا عمرو»
فقلت أردت ان أشتري . فقال «تشرط ماذا» قلت ان تغفر لي ماتقدم .
قال « اما علمت يا عمرو ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم
ما كان قبلاها وان الحج يهدم ما كان قبله ؛ » فبايعته فذا كان احد أجل في
عيني منه اني لم أكن أستطيع ان املأ عيني منه اجلالا له فلو مت على
تلك الحال لرجوت ان أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء لا أدري
ما حالي فيها فاذا أنا مت فلا تتبعني نائحة ولا نار فاذا دفنتموني في قبري فسنوا
على التراب سنا (أي صبوه صبا) فاذا فرغتم من دفني فأقيموا عند قبري
قدر ما ينخر جزور و يقسم لحما حتى أعلم ما اراجع به رسل ربي فاني استأنس
بكم اه وروي هذا الخبر أيضا من طرق أخرى باختلاف قليل في اللفظ
ووري عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو ان أباه قال حين
احتضر : اللهم انك أمرت بأمور ونهيت عن أمور ، تركنا كثيرا مما
أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لا اله الا أنت : ثم أخذ بآبها مه
فلم يزل يهال حتى مات : وفي رواية انه وضع يده موضع المثل من ذقنه
ثم قال : اللهم أمرتنا فتركنا ، ونهيتنا فركبنا ، ولا تسعنا الا مغفرتك ، :
فكانت تلك هجراه حتى مات

وكانت وفاته بمصر يوم الفطر سنة ثلاث واربعين في خلافة معاوية
وهو متجاوز السبعين وقيل انه تجاوز الثمانين ودفن في المقطم في جهة الفخ

وكان طريق الحجاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة وكان عمرو قصيراً مخضباً بالسواد وكان غنياً جداً على ما يظهر من سيرته وقد روى ابن عساکر أن عمرًا كان يقيم كروم الوهط (بستان له بالطائف) بالف الف خشبة كل خشبة بدرهم فالسكرم الذي يحتاج إلى خشب بليون درهم كم تكون غلته هذا إذا صح الخبر. وقد كان له دور كثيرة منها داره بمصر وتعرف بدار عمرو قرب الجامع وكان له دور بدمشق منها دار بجيرون ودار في ناحية باب الجابية بين دار السعادين وزقاق الهاشميين ودار تعرف بدار بني أحيحة أو بني جحيحة في رحبة الزيب ودار تعرف بالمارستان الأول عند عين الحمى كذا جاء في تاريخ ابن عساکر وقد ذكر المؤرخون من مقدار ثروته ما لا يقبله القل فضر بنا صفحاً عن ذكره



ولده

ولد له عبدالله ومحمد وكان عبدالله يكنى أبا محمد وأسلم قبل أبيه وكان عاقلاً فاضلاً شجاعاً يضرب بسيفين وكان يقرأ بالسريانية وقد نهى والده عن دخول الفتنة وأشار عليه باعتزالها كما رأيت فيما مر طلباً للسلامة وتوفي بمكة عن اثنتين وسبعين سنة وله عقب من زوجه عمرة بنت عميد الله ابن عباس وعمرو بن شعيب وكان سرياً ربما قسم في المجلس الواحد من صدقة جده خمسين ألفاً كما ذكر ذلك ابن قتيبة اهـ

انتهى الجزء الثالث وهو يشتمل على سيرة أشهر مشهوري الرجال في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين. وقد أبطأت باصدار هذا الجزء لمرض ألم بي يقضي علي تخفيف المطالعة ومراعاة الراحة فأرجو من القراء المَعذرة وأسأل الله أن يعينني على إتمام الأجزاء التالية إنه أكرم مسؤول

﴿ أجوبة انتقاد ﴾

انتقد علي كثير من أصدقائي ورود خطأ كثير في الجزء الثاني ذير
 ما أصاح في فهرس الخطأ والصواب واستكثروا أيضا ما ورد في ذلك الفهرس
 وعذري في ذلك أبنته في آخر الجزء وهو المرض الذي ألم بي في أثناء كتابة
 الجزء وعدم تمكني من مراجعته وتصحيحه حتى في حال الطبع وسأعيد
 طبعه مصححا مضبوطا ان شاء الله تعالى (١)

وطلب اليّ بعضهم التوسع في أخبار الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية
 والخروج عما شرطته على نفسي في خطبة الكتاب قائلا بعد كلام طويل
 (انك مهدت في تاريخك هذا طريقا وعرة للمؤرخين والكتاب في اطلاق
 حرية الفكر والقلم من أسر التقليد والقاء الكلام على عواهنه وسرد الحوادث
 سردا لا تظهر منه حقيقة تاريخ الاسلام . وكما انك السابق بين مؤرخي
 المسلمين من أهل العربية في تحكيم العقل في أخبار التاريخ وتتبع مواضع
 النقد وبيان الاسباب والنتائج على أسلوب قد أشربته العقول وسيكون
 قدوة لمؤرخي المسلمين وهذا ما نتمناه فانا نسألك أن تقدر لنا ذلك القيد الذي
 قيدت به نفسك في صدر الجزء الاول ولا تضن بالتوسع في أخبار الفتن التي
 أشرت اليها لان التوسع بها وحدها توسع في تاريخ الاسلام كله الخ . قال
 وجوابنا عنه اني مع الشكر لحسن ظن ذلك الفاضل بي أعترف بأنني
 أضف من خط القلم وكتب في التاريخ وكل ما علقته على الحوادث من النقد
 والبيان انما هو نتيجة الجرأة واطلاق الفكر من أسر التحفظ الشديد وإلا

(١) أعيد طبع الجزء مصححا على قدر الامكان

فان حوادث تاريخ الاسلام مكتوبة في ثنايا الكتب في أجلى مظاهر الحقيقة اذ لم يضمن المؤرخون علينا بشيء من غشها والسعين فهم أصحاب الفضل واليهم يساق الثناء جزاهم الله عنا خير الجزاء وما كتبوه من أخبار الصدر الاول يدل على اغراق في حرية القلم وبيان الحقيقة ما أظننا نستطيع ان نقفوه أثرهم في هذا العصر اذا أراد أحدنا ان يكتب تاريخ واحد من الملوك من معاصريه . وانما تجنبوا البحث في الاسباب والنتائج وتعليق آرائهم الخصوصية على الاخبار لاسباب عديدة لا تخفى على من له وقوف على أحوال المسلمين وشدة ما أوجده علماءهم من الارتباط الشديد بين الدين والسياسة حاشا المعتزلة والشيعة فانهم علقوا على أخبار الصدر الاول أفكارهم الخصوصية لكن من جهة دينية لا من الجهة الاجتماعية والسياسية وغلوا في ذلك غلوا شديدا ولا سيما الشيعة حتى ظهر التحامل على كلامهم ظهورا لم يبق له ادنى اعتبار عند من سواهم ولله در امام المؤرخين وفيلسوف العمران العلامة ابن خلدون الذي سبق كل كتاب المسلمين والمؤرخين باستقصاء فلسفة التاريخ في مقدمته الشريفة فكان خير قدوة لمن كتب ويكتب بعده في هذا الباب سواء من أهل المشرق أو من الافرنج الا انه افرد آراءه الخصوصية بمقدمة تاريخه المشهورة ولم يأت بها في غضون التاريخ بخالفته في هذه الطريقة لما يترتب على الانيان بالشواهد في محامها ومحاكمة الخبر عند ايراده من الاثر النافع في النفوس وان أكن انا وأمثالي عالة عليه لا ندرك له شأوا في الآراء العالية والمذاهب الصحيحة واني يدرك الظالم شأو الظلم

واني لما رأيته أشعر بالحاجة الى التوسع في تاريخ الصدر الاول كما

شعر بها ذلك الفاضل تبسط في بعض المواضع من هذا الجزء أكثر مما اشترطته على نفسي مراعيًا فيما قلت ونقلت جانب الأدب وحسن الأداء الواجب على المؤرخ الذي لا غرض له مع شخص بعينه أو فريق مخصوص وإنما غرضه بيان الحق وتوخي الحقيقة فإن أخطأت في شيء مما قلت فاستغفر الله منه وإنما هو رأي أبدي فلا يؤاخذني المخالفون لي في هذا الرأي لاني مؤرخ لا متكلم ولا جدلي ولا فقيه . وسألم في بقية الكلام على الصدر الاول بشيء مما بدأت به رغم تكلمي تجنب الخوض في أخبار القوم وأراعي على قدر الامكان ما أخذته على نفسي من التأدب وعدم الاسترسال في النقل اجابة لرغبة الراغبين والله الموفق والمعين

وطلب مني فاضل من أفاضل بيروت ان أوفق بين ما نقلته في الصفحة ٨٦ من الجزء الاول من قول أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أكبر مني وأكرم وأنا أسن منك : وبين ما نقلته في الصفحة ١٢٧ من أن أبا بكر توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة مع ان من الثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم توفي له من العمر ثلاث وستون سنة فيكون أكبر سنا من أبي بكر بما يوازي مدة خلافته بعد انبي صلى الله عليه وسلم وهي سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام

والجواب عن هذا ان التوفيق معذر في الحقيقة ما لم يشبث ان أبا بكر توفي وله من العمر أكثر من ثلاث وستين والاكثر على انه لم يتجاوز هذا السن واما رواية يزيد بن الاصم فهكذا نقلها السيوطي عن أحمد وابن عساكر ولكن جاء في رواية أخرى لابن أبي شيبه وابن عساكر أيضا ان الذي سئل وأجاب هو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم لا أبو بكر

وتنبيه المنتقد الى ما نبهنا اليه يرجع ان الرواية الثانية هي الاصح وقد كنت قصدت ان أشير في هامش الكتاب الى هذه الرواية لما ذكرت الرواية الاولى فأنسيت على ذلك فلامنتقد الشكر على التنبيه لهذا الامر

وانتقدت علي مجلة المقتطف الغراء اختصارى في الكلام على فتح مصر في الجزء الثاني مع أني ذكرت في نفس الفصل الذي كتبتة ثمة عن فتح مصر ان فتحها لما كان عن يد عمرو بن العاص فقد دعاني ذلك لترك الاستفاضة في الكلام على فتحها الى سيرة عمرو والظاهر ان المنتقد لم ير تلك الجملة لهذا أخذ علي ذلك الاختصار وقد بسطت الكلام على فتح مصر في هذا الجزء بسطاً أرجوي أن يكون وافياً بالغرض

وانتقد علي المقتطف أيضاً انكاري على المتأخرين ذكرهم خبر خالد ابن الوليد وحقاقه بأهل دمشق وقتلهم وجزمي بأنه خبر باطل لم يرد في تاريخ من التواريخ الاسلامية الصحيحة فرأى المقتطف انه ورد في تاريخ اسلامي وهو فتوح الشام المنسوب للواقدي واني نقلت عنه أخبار فتح الشام فكيف أنكر هذا الخبر وعين الصحف التي ورد فيها ذلك الخبر من الكتاب المذكور ولعل الكاتب الفاضل لم يساعده الوقت على قراءة ما قلته في افتتاح الكلام على فتح دمشق من اني نقلت أخبار الفتح عن تاريخ الطبري فلو قرأ ذلك الفصل برمته وطبق ما أورده عن أخبار فتحها على الطبري لوجده منقولا عنه حرفاً بحرف . ولعله لم يستقص أيضاً الفصل الذي ورد تحت عنوان (بطلان خبر) كله ولم ير ما قلته فيه (من ان ذلك الخبر لم ينقله أحد من ثقة المؤرخين من المتقدمين وربما يكون نقله المتأخرون عن كتب القصاصين كفتوح الشام وأمثاله) ولو قرأ هذه الجملة لما استند في تأييد

الخبير على فتوح الشام الذي وهنت خبره في نفس الفصل واني مع شكري
 للمقتطف على اعطائه كتابي نصيبا من الانتقاد وحظاً من العناية التي
 تدل على احلاله منه محل القبول استسمح كاتبه الفاضل من أخذي عليه
 اعتماده كتاب فتوح الشام من التواريخ الوثيقة مع انه كتاب من كتب
 المغازي والقصاصين التي لم يعرف واضعوها الى الآن وانما نسب هذا
 الكتاب الى الواقدي لكثرة ما عرف عن الرجل من رواية الاخبار ،
 هذا من وجه ومن وجه آخر فان الثقة من أهل الاخبار والمحدثين
 يوهنون رواية الواقدي فلو فرض صحة نسبة الكتاب اليه فانه عندنا غير
 موثوق ولنا مندوحة عنه بمثل تاريخ الطبري الذي هو أعظم تاريخ كتب
 في القرون الاولى ويتلوه غيره من كتب التاريخ الوثيقة وكلها لم تذكر
 ذلك الخبر : وفي كل حال أشكر مجلة المقتطف التي أخذت بانتقاد كتابي
 دون كثير من المجلات التي كنت أتمنى لو تحذو حذو المقتطف الاغرمنا
 في ذلك من التعاون على استجلاء الحقائق التي هي مرامي أفكار الباحثين :
 انتهى الجزء الثالث بحمد الله



فهرست

— الجزء الثالث من أشهر مشاهير الاسلام —

صحيفة	صحيفة
٥٢٨ صحبته	أبو عبيدة ابن الجراح
٥٢٩ (باب) حروبه وفتوحاته	٥٠٤ (باب) حاله في الجاهلية
٥٣٥ (دعوة المسلمين الى الاخاء والمساواة أوما نشأ عنها)	نسبه وأصله
٥٤١ وقائع القادسية	٥٠٤ سيرته في قومه ومكانته عندهم
٥٤٩ فتح المدائن عاصمة الاكاسرة	٥٠٥ ((باب) اسلامه وصحبته
٥٥٦ (باب) تخطيط الكوفة وامارته عليها	اسلامه
٥٥٨ (باب) نبذ من أخباره واعتزاله الفتنة	٥٠٥ صحبته
٥٦٢ اعتزاله الفتنة	٥٠٨ (باب) حروبه وفتوحاته بالشام
٥٦٦ (باب) وفاته وولده وصفته	٥١٠ كلمة في العمال
٥٦٧ صفته	٥١٣ باب أخلاقه وسيرته
٥٦٧ ولده	٥١٨ تنبيه
عمرو بن العاص	٥١٨ (باب) وفاته
٥٦٧ (باب) حاله في الجاهلية	٥١٩ وصيته
نسبه وأصله	٥٢٠ خطبة معاذ بعد وفاة أبي عبيدة
٥٦٨ صناعته ومكانته في قومه	٥٢١ كلمة في القبور
٥٦٩ (باب) اسلامه وصحبته	سعد بن أبي وقاص
٥٧٢ (باب) اسلامه	٥٢٥ (باب) حاله في الجاهلية
٥٧٢ صحبته	نسبه وأصله
٥٧٤ (باب) حروبه وفتوحاته	٥٢٥ مكانته عند قومه وصناعته
فتح مصر وبرقة	٥٢٦ ((باب) اسلامه وصحبته
	اسلامه

صحيفة	صحيفة
٥٩٣ (تحقيق الكلام في حريق مكتبة الاسكندرية)	٦٢٩ أخباره مع معاوية وكلمة في الفتنة (باب) نبذ من أقواله وأخباره
٦٠٠ عود الى خبر الفتح	٦٤٧ أقواله
٦٠٣ (باب) ولايته على مصر	٦٥٠ خطبة له
٦١٦ آثاره فيها وأخباره مع عمر	٦٥٦ (باب) وفاته وولده (وفاته وكلمة بجملة فيه)
٦٢٢ عود لخبر عمرو	٦٥٩ ولده
٦١٦ (باب) دهاؤه وأخباره مع عثمان ومعاوية وكلمة في الفتنة أخباره مع عثمان	٦٦٠ أجوبة استقاد



